تحدي القراصنة

محمود سالم

تحدي القراصنة

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

تحدي القراصنة

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٥ ٢٩١٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
قريبًا تُشرق الشمس!	١١
حطام القراصنة!	١٩
رسالة من عمالقة المحيط!	٢٩
الشياطين في الوكر!	٣٧
في انتظار الحوت!	٤٥

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

قريبًا تُشرق الشمس!

جلس رقم «صفر» يقرأ تقريرًا خطيرًا صادرًا عن إحدى إدارات مكافحة الجريمة، وفيه تحذيرٌ خطير من أن عصابات الجريمة المنظمة ستتحد مع المنظمات الإرهابية، وأكَّد هذا التقرير أن الموقف يزداد سوءًا؛ لأن العصابات لم تَعُد مقصورة على المافيا الإيطالية، بل أصبحت تضم المافيا الصينية والروسية وعصابات المخدرات في كولومبيا …

وأكَّد التقرير أيضًا أن هناك تعاونًا بين العصابات في الدول المختلفة، وأن العصابات تنتقل من دولة إلى أخرى حين تجد تشديدًا في قوانين مكافحة الجريمة، ويساعد على ذلك سهولة انتقال الأموال بين الدول بواسطة بعض البنوك.

وضع رقم «صفر» التقرير على المكتب أمامه، ثم بدأ يفكر وهو يضع قبضته تحت خدِّه مستندًا إلى المكتب، وقال: كلما زاد الإنسان تقدمًا كلما ساءت أخلاقه وكان من المفروض أن يحدث العكس، يبدو أن المسيطرين على المافيا العالمية قلة قليلة تُحرِّك طوابيرَ من العملاء والخونة؛ ولذا يبدو أن الشر هو المسيطر … هذه سنة الحياة … الصراع بين الخير والشر، لكن الغلبة في النهاية لا بد أن تكون للخير، للحق، للفضيلة، للمبادئ … وصاحب الهدف النبيل لا يتسلل اليأسُ إلى قلبه أبدًا … وأثناء ذلك كانت هناك رسالة على جهاز الفاكس قد أخذَت طريقَها إلى الجهاز، ثم وقف أمام المكتب يقرؤها: لم تَصِل إحدى السفن التي تُقلُّ ٢٠٠ من اللاجئين إلى ميناء «م. و» عاصمة «ك. هـ»؛ إذ كان مقدَّرًا لها أن تَصِل بعد أسبوع واحد، وقد مرَّ على موعد وصولها ثلاثةُ أسابيع لكنها لم تَصِل، وقد وصلَتنا اليوم رسالةٌ من «جنوب أفريقيا» تؤكد أن السفينة أخذَت طريقًا مغايرًا تمامًا، مما يُوحي أن وراءها عمليةَ اختطاف لبيع هؤلاء كرقيق، نرجو تعاونكم والتدخُّل الفوري، المخلص «س. ٦».

نظر رقم «صفر» في ساعته، كانت تُشير إلى العاشرة والثلث صباحًا، توجَّه ناحية النافذة، ثم شرد بذهنه لحظات، ثم استدار للخلف واتجه إلى مقعده وجلس، ثم ضغط

عدةَ أزرار عن يمينه واسترخى للخلف، ثم قال: قريبًا ستُشرق الشمس. في نفس الوقت كان الشياطين يترقبون رقم «صفر» على شاشة قاعة الاجتماعات بمقر الشياطين السري بالهرم، أُضيئَت الشاشة الكبيرة ثم بدأت تتضح شيئًا فشيئًا خريطة أفريقيا العملاقة وإلى جوارها كانت الكلمات تصطفُّ لتشكِّل أجزاء الرسالة التي وصلَت للزعيم رقم «صفر». تابع الشياطين الرسالة باهتمام.

علَّق «عثمان»: أفريقيا مرة أخرى ... إن جرحي لم يزل يؤلمني ...

نظر «أحمد» إليه، وقال: أفريقيا هذه هي الكعكة اللذيذة التي يُطمَع في التهامها ...

بدأَت أنفاس رقم «صفر» تتضح ويسمعها الشياطين ... صمت الجميع ... تدفَّقَت كلمات الزعيم حاسمة قوية ... تُحرِّك المشاعر والهمم ... وتُثير الحماس في نفوس الشياطين، تكلَّم عن الحق والقوة ... ولا بد للحق من قوة تحميه، وتكلَّم عن الباطل وضعفه، وأنه مهما علا فهو ضعيف ... ولذا يجب على أنصار الحق أن يستشعروا قوتهم، ويكونوا على يقين أن أهل الباطل ضعفاء مهما حملوا من سلاح وقوة ... ثم أخبرهم عن التقرير الذي وصل إليه يحمل التحذير من اتحاد العصابات وأن نشاط هذه الشبكات يمتدُّ بالفعل إلى ٥٠ دولة ... وفي بعض العصابات التي سقطَت وُجد بحوزتها أجهزة الإطلاق للقذائف المضادة للدبابات وقاذفات صواريخ، وأسلحة أخرى قادرة على إسقاط طائرات هليكوبتر، وتقوم معظم هذه العصابات بتهريب المخدرات والأسلحة وتجارة الرقيق.

ثم صمت لحظات واستأنف كلامه: وهذه الرسالة التي وصلَت اليوم أثناء قراءة التقرير تؤكد أننا أمام عصابة من هذه العصابات، وقد اختطفت هذه السفينة البالية بما عليها من اللاجئين لبيعهم في سوق الرقيق ... وكان مقدَّرًا لهذه السفينة أن تَصِل بعد أسبوع، وقد مرَّت أسابيع ... والمعلومات المؤكدة أن السفينة قد أخذَت طريقًا معاكسًا لرحلة الوصول ... طبعًا في ظل الحرب الأهلية الدائرة في هذه الدولة لن ينشطَ أحدٌ ولن يهتمَّ بأمر هؤلاء ... لأن الكل مشغول بما يحدث لكن ما ذنب هؤلاء أن يقضوا بقية عمرهم في ذل الرق والقيود؟ ما ذنبهم أن يُباعوا في ظل النظام العالمي الذي فقد ضميره؟

لذا يجب على كل إنسان له ضميرٌ حيٌّ أن ينهض ليحُولَ بين هؤلاء وبين الرق ... وهذه مهمتُنا ... مهمة إنسانية جديدة ... أن نقف في وجه الشر والباطل والطغيان لو نظرنا على الخريطة، حيث يُشير السهم إلى نقطة الانطلاق. ثم افترضنا اتجاه السفينة هكذا في الاتجاه العكسي ... فإنها بعد شهر ستكون قد وصلَت إلى هذه المنطقة تقريبًا.

ثم اتجه السهم إلى جزيرة في المحيط الهندي شرق الساحل الأفريقي الجنوبي وهي جزيرة «ألديرا» ليس أمامها سوى محطتَين يمكن أن ترسوَ في إحداهما، أولاهما هي «جزر

القمر»، والثانية هي «مدغشقر»، ولكي تصلَ إلى إحدى المحطتين لا بد لها من ستة أو سبعة أيام ... مما يعطينا فرصة أكبر للتحرك واتخاذ التدابير اللازمة.

المهمة صعبة لأنها في الماء، والماء منطقة مكشوفة ... وصعبة لأننا نفترض من الآن بعد هذا التقرير أننا أمام اتحاد عصابات؛ فالجهات مفتوحة علينا من كل جانب ... وصعبة لأنهم يملكون أسلحة متقدمة كما سمعتم من لحظات، لا أقول هذا كي نتوجس خيفة، ولكن لنأخذ حذرنا قبل كلِّ خطوة نخطوها، سنقذفهم أولًا بنصف دستة شياطين ... ثم ننظر في العواقب.

اعتدل الشياطين في مجلسهم ونظر كلٌّ منهم للآخر ... فكلُّ واحد منهم قد أعدَّ نفسه ضمن الستة ... لاحظ الزعيم رقم «صفر» هذا، وربما يكون قد قرأ أفكارهم فعلًا ... ثم قال: أعرف أنكم مستعدون، وحين أختار أحدًا لمهمة فأنا لا أميزه ... وإنما لعلمي أنكم قلبٌ واحد وفكرٌ واحد ... ولعلمي أن الباقين أشدُّ انشغالًا وقلقًا على زملائهم من القائمين بالمهمة أنفسهم ... فليستعدَّ كلٌّ من «أحمد»، «بو عمير»، «خالد»، «قيس»، «باسم»، و«رشيد».

قبل حلول الظلام ستكون لديكم تذاكرُ سفر إلى «جزر القمر» ... وفي جزيرة «مورو» لؤلؤة «جزر القمر» ستجدون كلَّ معاونة من صديقنا الحاج «أحمد جوهر» ... وحين تَصِل التذاكر سيكون معها آخر التعليمات. تمنياتي لكم بالتوفيق ...

كان «عثمان» متأثرًا وحزينًا لعدم اختياره ضمن المجموعة التي ستقوم بهذه المهمة ... لكن «أحمد» نبَّهه إلى أنه مصاب وحالته بهذه الصورة لا تسمح باشتراكه في مهمة خطيرة كهذه قبل تمام شفائه، وانهمك الشياطين في إعدادِ كلِّ ما يمكن أن يحتاجوه حتى قاربَت الساعة الواحدة ...

ولما كان الجوُّ حارًّا فقد عمد «أحمد» إلى الحمام ليغتسل ويلطف من حرارة جسده وكذلك فعل بعض الشياطين ... ثم تناولوا غداءَهم، وتمددوا على الأسِرَّة طلبًا للراحة ...

أمسك «بو عمير» بإحدى الصحف وأخذ يقلِّب صفحاتها وهو مستلقٍ على ظهره ... ثم مال بوجهه إلى «أحمد»، وقال: صفحات الجرائد ممتلئة بأخبار الخطف والانقلابات والحروب الأهلية كأن نهاية العالم قد أوشكت ...

ردَّ «أحمد»: فعلًا؛ فالعالم يحرِّكه تجارُ السلاح والمخدرات وتجار الرقيق ... ولن تروجَ مثل هذه التجارة إلا بتقديم القرابين البشرية ... لا بد من ضحايا ...

بو عمير: ثم ماذا بعد ذلك؟

أحمد: لا شيء ... سوى النهاية المفجعة للجميع ... إلا إذا تعاون الكل في سبيل القضاء على هذا التيار العنيف من الشر والفساد.

بو عمير: يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنه لم يَعُد للأمل مكانٌ في نفوس البشر.

أحمد: فعلًا لكن مَن يدركون قيمة الحياة يؤمنون بضرورة تلازم الخير والشر.

تدخَّل «خالد» في الحوار حين وجد نفسه غير مستعد للنوم، فقال: يعني ... مشكلة كهذه لا يمكن لإنسان عاقل أن يتخيل حدوثها ... كأنني أرى ذئبًا متوحشًا وجد حَمَلًا صغيرًا فأخذه بمنتهي البساطة ومضى ...

أحمد: إنها مشكلة تهزُّ الضمير ... لكن في ظل هذه الظروف والأحداث التي تقع في العالم ليس من المستبعد حدوثُ أيِّ شيءٍ مهما كان.

وطال الحديث حتى هدأ الثلاثة واستسلموا لنفحة جميلة من هبات النسيم طارَت بهم إلى عالم الأحلام ... فقد ركبوا قطار النوم السريع المفاجئ.

حين استيقظ الشياطين وجدوا تذاكر السفر جاهزة ومعها تقرير من الزعيم رقم «صفر» به آخرُ التعليمات، لقد كان واضحًا وصريحًا في لهجته باستخدام القوة وعدم التردد خصوصًا فوق المحيط ... لأن التردد يحمل معه الموت السريع في هذه المنطقة المكشوفة، ونصحهم بتسليم السفينة إلى أقرب سلطة تُقابلهم قبل مفاجئتهم بفرقة أخرى من اتحاد العصابات ... حيث إن هذه المناطق كلها بدائية في ترتيبها الأمني ... مما يجعل الساحة واسعة أمام العصابات المختلفة لأن تمارس أنشطتها دون مواجهتها.

نظر «أحمد» في تذاكر السفر ... كان موعد إقلاع الطائرة في تمام الساعة التاسعة ... اطمأن «أحمد» إلى أن هناك مزيدًا من الوقت، فأخذ يستكمل باقي استعدادات السفر ويُتمم على كل شيء بنفسه.

دخل «أحمد» الغرفة الخاصة بالأجهزة المتطورة ... وحمل جهاز اتصال للمسافات البعيدة وأدخله في الحقيبة، ثم اعتدل، وقال: كل شيء جاهز الآن ...

في تمام الساعة الثامنة والنصف كان الشياطين داخل الصالة في المطار. اتجه «أحمد» إلى بائع الجرائد، واشترى صحيفة مسائية ووقف يقلِّب صفحاتِها لعله يقرأ شيئًا جديدًا لكنه لم يجد أيَّ جديد ... كلُّ الأخبار متشابهة، تحديد إقامة رئيس الأركان في «بنجلاديش» ... فشل المحاولات في محاكمة زعيم الصرب، القتال في شوارع «مونروفيا»، العالم كله يغلي كأنه فوق صفيح ساخن ... طوى الصحيفة وسار إلى حيث يجلس الشياطين ... ثم بدأ يحمل الحقائب استعدادًا لركوب الطائرة ... أقلعت الطائرة وأخذ كلٌّ منهم مكانَه، وشرد الشياطين بعيدًا بأفكارهم، كلٌّ في عالمه ومضَت ساعة، كان الهدوء يخيِّم فيها على الطائرة

إلا من صوت الموسيقى يتهادى رقيقًا يملأ المكان سحرًا، وحانت من «بو عمير» التفاتةٌ إلى «أحمد» الذي كان يجلس على المقعد الموازي مباشرة ثم قال لـ «أحمد»: هل ذهبتَ قبل ذلك إلى «جزر القمر»؟

ردَّ «أحمد»: لا ... لكني قرأتُ عنها كثيرًا ... إنها دولة إسلامية تتكلم اللغة العربية والفرنسية وقد انضمت إلى جامعة الدولة العربية عام ١٩٩٣م.

بو عمير: لماذا سُمِّيَت «جزر القمر»؟

أحمد: إنها تسميةٌ تعود إلى التاريخ القديم حين هبط أجدادنا العرب هذه الجزر أوائل القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. وحين هبطوا إلى الجزيرة كان القمر بدرًا فأسمَّوها جزر القمر، وقد أخذ الأوروبيون هذا الاسم وأطلقوا على هذه الجزر اسمَ «كومور» أو «كوموروس».

بو عمير: إذن لن نجد صعوبة في التحرك ... والتعامل هناك ...

أحمد: إنك ستشعر كأنك في أيِّ بلد عربي ... نفس العادات والتقاليد والثقافة، لقد هاجر كثيرٌ من أجدادنا العرب من دول الخليج، من «سلطنة عمان» ومن «اليمن» كانوا صيادين ويعملون بالتجارة ... والتاريخ يُثبت أن كلَّ سلاطين جزر القمر كان أصلهم من «حضرموت» (اليمن).

بو عمير: المواطن القمري إذن عربي.

أحمد: نعم أصلُه عربي ... وبالمناسبة هناك تفسيرٌ آخر لاسم جزر القُمر بضم القاف، وهو نوع من الطيور.

بو عمير: عظيم ... ولكن قد قلت إنهم يتكلمون الفرنسية مع اللغة العربية ...

أحمد: نعم ... فالاستعمار الأوروبي وهو يقسم التركة الأفريقية، فكانت جزر القمر من نصيب فرنسا، واعتبرت عام ١٩٤٦م إقليمًا فرنسيًّا ... لكنها نالَت الحكم الذاتي عام ١٩٦١م ما عدا جزيرة «ماهورية» أو «مالوت» التي لا تزال خاضعة للنفوذ الفرنسي.

بو عمير: يبدو أننا كسالى من الناحية الثقافية ... أشياء كهذه كان لا بد أن نتعرف عليها ونكون على علم بها ... وطال الحديث عن «جزر القمر» وأهلها ودور العرب في مساعدة هذه البلاد المسلمة ودور الشباب في تنشيط هذه المنطقة الحيوية، والتي تعتبر بحقٍّ كنزًا من كنوز الطبيعة، وضرورة الاستثمار العربي في كل المجالات المناسبة وخصوصًا صيد الأسماك ففيها ثروة سمكية ضخمة؛ حيث يأتي الغربيون بسفنهم ليصطادوا الأسماك قريبًا من شواطئ «جزر القمر»، ويسرقوا هذه الكميات المهولة من الأسماك. وطالت الرحلة

من القاهرة حتى هبطت الطائرة في رأس «دالجادو» الفاصل بين «تنزانيا» و«موزمبيق». أحسَّ الركاب بالإرهاق، وتوقَّفت الطائرة لمدة ساعتين هبط الشياطين كباقي الركاب ... يحرِّكون أجسادهم ويغيرون الهواء الذي كانوا يتنفسونه في الطائرة طوال هذه الرحلة.

جلس الشياطين على مقعد بعيد عن حركة الركاب ... كانوا في حاجة إلى مرطبات تُخفِّف عنهم حدةَ الحر الشديد ... الظلام كثيف أضواء المصابيح الهزيلة تقاوم الظلام بصعوبة. قام «أحمد» وسار إلى كافتيريا قريبة من استراحة الركاب طلب بعض المثلجات ... ووقف «أحمد» ينظر في المكان ... كانت هناك عينان لامعتان في الركن البعيد تحدِّقان النظر في وجه «أحمد».

لاحظ «أحمد» ذلك الرجل الأسود على الضوء الخافت ... لم يهتمَّ «أحمد» به ... تناول المثلجات وسار في طريقه إلى الشياطين، قطع «أحمد» نصف المسافة تقريبًا ... وفجأة سقطَت من يده كلُّ الأشياء ... لقد اصطدم به شخصٌ ما في طريقه ... نظر أحمد إلى الرجل ... لم يكن هو ... اعتذر الرجل بشدة وأصرَّ على أن يعودَ أحمد معه ويعطيَه بديلًا عن المثلجات التي سقطَت، رفض «أحمد» بشدة لكن الرجل كان مصرًّا ... وحمل الرجل المثلجات ومشى مع «أحمد» حتى وصلَا إلى بقية الشياطين، واعتذر الرجل مرة أخرى وترك الأشياء ومضى ... نظر «خالد» إلى الرجل وهو يختفي، ثم قال لـ «أحمد»: مَن يكون هذا؟

ردَّ «أحمد»: اصطدم بي وأنا قادم بالمرطبات، وأصرَّ على أن يأتيَ بغيرها ويوصلَني بها ... لم يهتمَّ الشياطين بالرجل أكثر ... لكن «أحمد» كان فكرُه يروح ويجيء ...

جلس الشياطين في حالة استرخاء يشربون المرطبات ... في هذا الضوء الخافت المنعكس عليهم من مصباح بعيد ... لكن كان هناك شيء ما يحدث ... لقد كانت هناك أضواء بطاريات تظهر وتختفي من بعيد، كان «أحمد» غارقًا في تفكيره حين لمح هذه الأضواء على البُعد كأنها إشاراتُ تنبيه.

فجأةً ثم راح ينظر عن يمينه وشماله ... ثم استدار ينظر خلفه ... لقد لاحظ أن الأضواء تأتي من جميع الجوانب ... وبمنتهى الهدوء قال للشياطين: لقد وقعنا في كمين ... لقد نصبوا لنا فخًّا ونريد أن نخرج منه!

قيس: كيف ذلك؟ وأين؟

أحمد: إن الشخص الذي اصطدم بي واحد منهم ... وبذلك عرفوا مكاننا وهم الآن يحيطون بنا من كل جانب، تعالَ يا «بو عمير» معي لنشكر الرجل الذي قدَّم لنا المرطبات وأنتم احترسوا؛ فقد يأتون إليكم في أية لحظة.

كانت خطة «أحمد» تقضي بأن يذهب للكافتيريا ومعه «بو عمير»، وبذلك يكون قد ظهر للعصابة اثنان ولا بد أن يظهر لهما أحدٌ من أفراد العصابة حتى يشتِّتوا جهودهم في مراقبة الشياطين ويستطيعوا التعامل معهم بدلًا من أن يحاصروهم من كل جانب.

حين اقترب «أحمد» و«بو عمير» من الكافتيريا ظهر لهما شخصان ... كان أحدهما هو الذي اصطدم بـ «أحمد» ثم اقتربا منهما، وقال لـ «أحمد»: هل هناك شيء آخر؟

ردَّ «أحمد»: نعم ... نريد أن نشكرك على المشروبات المنعشة!

أحس «أحمد» و«بو عمير» أنهما ينويان شرًّا ... فنظر «أحمد» إلى «بو عمير» نظرة جانبية أدرك «بو عمير» منها خطة التخلص السريع ...

وسرعان ما استدار في حركةٍ خاطفةٍ طائرةٍ أطاحَا فيها بالرجلَين ... فانطرح الرجلان على الأرض ثم هوى «أحمد» و«بو عمير» عليهما في حركات خاطفة رشيقة ... وتركاهما على الأرض يتألمان ثم رجعَا إلى الشياطين الأربعة ... وحين وصلَا إلى حيث الشياطين وجدوا حركة غريبة بالقرب منهم ...

انحنى «أحمد» حتى اقترب من الأرض، وترك «بو عمير» في مكانه، ثم أسرع واختفى خلف أحد المقاعد ... لقد كان هناك أكثرُ من شخص تبدو أشباحُهم في الظلام تقترب من الشياطين الأربعة للإيقاع بهم ... تنبَّه «أحمد» إلى وجود شبح قريب منه يقترب من خلف الأريكة التي يجلس عليها الشياطين.

اندفع «أحمد» في الظلام ثم قبل أن يلتفت إليه الشخص كانت القبضة الحديدية قد ارتطمَت به فهوى إلى الأرض كالحجر الثقيل، وتأكد «أحمد» أنه لن يُفيقَ قبل عدة ساعات.

كان الشياطين في حالة من الضيق الشديد حيث يقف أمامهم شخصان كلٌّ منهما قد صوَّب مسدسه نحوهم آمرًا إياهم أن يتركوا ما معهم أولًا، ثم يضعوا أيديَهم وراء رءوسهم كالأسرى ويلتفتوا للخلف، كان «أحمد» و«بو عمير» قد انطلقَا في سرعة خاطفة، وأصبحَا على قيد خطوات قليلة من الرجلَين نادى «أحمد» أحدَ الرجلين: مستر ...

وقبل أن يلتفتَا كانت قبضتان خاطفتان قد أخذتَا طريقَهما إلى وجهَي الرجلين فطارَا باتجاه الشياطين الأربعة، فتلقَّاهم الشياطين قبل أن يصلَا إلى الأرض، وأمسك «خالد» بأحدهما من عنقه، وقال هوِّن عليك ... لا تخَف ... ثم ناوله قبضة أخرى سريعة سقط على أثرها قبل أن يَصِل إلى «أحمد»، وكان الرجل الآخر بين أيدي «باسم» و«رشيد» و«قيس» يتناوبونه بينهم كأنه كرة.

أمسك «أحمد» بالرجل المتكوم على الأرض، ورفعه ثم اقترب من وجهه، وقال له: مَن أنتم؟ ولحساب مَن تعملون؟

تنهَّد الرجل وهو يحاول أن يأخذ نفَسَه ثم قال: لا ... لا أقدر ...

أخرج «أحمد» مسدسه وصوَّبه إلى رأس الرجل، وقال له: ما رأيك ... طلقة واحدة تنقلك فورًا إلى عالم آخر هادئ لا ضجيج فيه ... ولكن لتتعذب وحدك. انطق لحساب مَن تعمل؟

صرخ الرجل: أرجوك اقتلني ... لكن لن أقول لك أيَّ شيء.

ردَّ «أحمد»: حسنًا ... سأقتلك ... ولكن ببطء ... سأربطك في عجلات الطائرة ... فالدنيا ظلام، ولن يراك أحد، أعطني الحبل يا «خالد»، وأنت يا «باسم» ضع شريطًا لاصقًا على فمه ... أصاب الرجلَ الذعرُ، وانهار من الخوف، وقال: لا ... سأقول ... ميت ميت ... إننا نعمل عند «أوكارا».

أحمد: ومن «أوكارا»؟

الرجل: إنه الزعيم لاتحاد العصابات في جنوب أفريقيا، إنه الآمر الناهي في هذه البلاد، إنه الإعصار الذي يدمر كلَّ شيء إذا غضب!

ردَّ «أحمد» مستهزئًا: غدًا سننتهي من هذا المدمر، غدًا حين تُشرق الشمس ...

حطام القراصنة!

راحَت الطائرة تُحلِّق فوق مياه المحيط الهندي وهي تتجه إلى الشرق، كان الشياطين مع ضوء النهار الساطع تبحث أعينُهم وتفتِّش عن «جزر القمر».

كانت جزيرة «نجازيدجا» هي أولَ ما لاح لأعين الشياطين، لقد كانت تمتدُّ في اتجاه عمودي عند مقدمة الطائرة ... ثم هبطت الطائرة في مطار «موروني» عاصمة ولؤلؤة جزر القمر، هبط الشياطين بحذر وهم يتوقعون مفاجأة بعد ما حدث طوال الليل في «دالجادوا» ... لكنهم وجدوا مفاجأة أروع ... لقد كان الحاج «أحمد جوهر» ينتظرهم بسيارته الفارهة، ووجهه الطيب وملامحه الودودة، لقد أحسوا أن المدينة تفتح لهم ذراعَيها، وتغمرهم بطيبةِ الوجوه وروعةِ الطبيعة الخلابة، والبيوت الناصعة البياض، وهامات النخيل، وجوز الهند الخضراء وكانت السيارة كلما هدأت من سرعتها لتنحرف إلى طريق آخر كان الشياطين يرَون الوجوه تُطالعهم بابتسامات وترحيب حتى ظن الشياطين أن سكان الجزيرة يعرفونهم ويعلمون مهمَّتَهم جيدًا.

وجاءت كلمات الحاج «أحمد جوهر» تُجيب عن أسئلة كثيرة تدور بأذهان الشياطين ... قال: الناس هنا طيبون مسالمون ... يحبون الخير ... ويوجد دائمًا للغريب مكانٌ بينهم، وإذا توسَّموا فيه خيرًا أصبح واحدًا منهم.

كان الشياطين يسمعون هذا الكلام ويرَون ما يحدث حولهم فيتعجبون ويتخيلون فعلًا أنهم في «مصر» أو «السعودية» أو «الجزائر» ... أو أي بلد عربي شقيق.

توقَّفت السيارة أمام بيت رائع له فناء واسع وبه كثيرٌ من أشجار الموز وجوز الهند ... وله سورٌ من الحجر الأبيض ...

نزل الحاج «أحمد» من السيارة وفتح البوابة بنفسه ثم عاد للسيارة، ودخل بها إلى فناء البيت ... ثم نزل الشياطين مع الحاج «أحمد»، وقادهم إلى حيث سيقيمون ... ثم قال

لهم مازحًا: أريدكم أن تقبلوني معكم أساعد في أي عمل ... فأنا وحدي هنا ... ليس لي زوجة ولا ولد، ليس معي إلا خادمي الأمين «بشرى».

ردَّ «أحمد»: نحن لا نستغني عنك لحظة.

ثم قال الحاج «أحمد»: قبل أن أنسى ... أنا لا أعرف شيئًا في هذا البيت؛ فالجائع يذهب ويبحث عن الطعام، فأنا مثلكم أعزب ... ولا أعرف الطهيَ ولا كيف يكون.

استولَت مشاعر الطيبة والروح المرحة على قلوب الشياطين؛ حيث لمسوا في شخصية الحاج «أحمد» وداعةً لا مثيلَ لها.

ثم أستأذن الحاج «أحمد» في الذهاب إلى متجره الذي يبيع فيه الأسماك، ثم طلب من الشياطين أن يستريحوا ويأخذوا قسطًا وفيرًا من الراحة حتى يعود إليهم بعد الظهر.

كان الشياطين فعلًا في حاجة إلى الراحة، وما إن أسلموا أجسادهم للفراش حتى سافروا بعيدًا في أعماق بحار النوم.

وحين استيقظوا كان الحاج «أحمد» قد عاد من متجره وأعدَّ الخادم مائدة الغداء، وكان عليها أصنافٌ متنوعة من الأسماك المشوية والمقلية ... فجلسوا لتناول الغداء ... لقد كان الطعام لذيذًا ... فأكلوا كثيرًا ... ثم جلسوا بعد الغداء يشربون الشاي ويتحدثون ... وطال الحديث عن الناس والخير والشر والجزر الأربعة، وهي «نجازيدجا» و«نزواني» أو «هنزوان» و«مايوتة» أو «ماهوري» والتي لا تزال تخضع للنفوذ الفرنسي وجزيرة «موالي»، ثم أخبرهم أنه يمتلك متجرًا لبيع السمك ويمتلك قاربَ صيد، وآخر مطاطًا، وأن كل هذا مسخرٌ لخدمة الخير وأهله ... وعرض الحاج «أحمد» المهمة وكيفية الإفادة من هذه الإمكانات في سبيل تحقيقها.

لقد بدَا الحاج «أحمد» حزينًا لما يحدث متعجبًا من هؤلاء الأشرار الذين يبيعون إخوانهم في الوطن واللون والجنس ... كل هذا من أجل المال؟ يبيع الإنسانُ أخاه من أجل المال؟

عرض الحاج «أحمد» على الشياطين أن يصحبَهم في جولة داخل المدينة ليروا أوجهَ الحياة المختلفة، ثم صحبهم إلى الميناء وأراهم قارب الصيد «الفيبر»، وهبط الشياطين إلى القارب الذي كان أشبهَ ببيتٍ ثم شاهدوا اللنش المطاطي ... وسار بهم الحاج «أحمد» على الشاطئ لمسافة طويلة ... ومرُّوا على أحد المرافئ الصغيرة، ورأوا المياه العذبة تتدفق شفافة بين الصخور، وثمار جوز الهند اللذيذة التي يروي ماؤُها العطشَ وفي ختام الجولة حضر بهم الحاج «أحمد» في المساء عرسًا «قمريًّا» ...

لقد كان الشياطين في دهشة مما رأوا كأنهم في إحدى المدن العربية العريقة فعلًا ... فزيُّ العروسين خليطٌ من الزي العربي وزي مسلمي آسيا، والحناء العربية تزيِّن راحتَي العروس، ومما أدهش الشياطين الستة هو مجموعة من الرجال والنساء كانوا ينشدون سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — في حفل العرس.

انقضَت السهرة وعاد الشياطين مع الحاج «أحمد» لكن من طريق آخر، فصعد بهم وسط التلال، ووجدوا أنفسهم في الأعالي وسط غابات كثيفة من الشجر ذي الرائحة الجميلة، وراح الحاج «أحمد» يتكلم ويصف لهم هذه الأشجار وما تُخرجه من أزهار وتأخذها «فرنسا» لتصنع منها أثمنَ أنواع العطور والمستحضرات الطبية، ثم عادوا إلى البيت.

جلس الشياطين الستة أمام الحاج «أحمد جوهر» الذي كان يجلس على مقعد وحيد في مقابلة الشياطين، وكان يتكئ على عصًا من الأبنوس ... وكان في رأس «أحمد» العديدُ من التساؤلات، ووجد الفرصة متاحة، فسأل الحاج «أحمد»: كيف هي حياة الصيادين هنا؟

ردَّ الحاج «أحمد»: الحياة هنا كما ترون بسيطة وهادئة، والصيادون يخرجون للصيد في رحلات تستغرق يومين أو ثلاثة، ثم يعودون.

قال «أحمد»: هل هناك شرطة مثلًا أو مخابرات تراقب نشاطهم أو تفتشهم؟

ردَّ الحاج «أحمد»: هناك فقط مبنى صغير به ثلاثة جنود يكتبون التصاريح للصيادين.

أحمد: ومتى تخرج رحلات الصيد غالبًا؟

الحاج «أحمد»: تخرج غالبًا بعد صلاة الفجر وقبل أن تطلع الشمس ... لكن لماذا كل هذه الأسئلة؟

أحمد: قد نحتاج إلى جولة في المحيط لاستطلاع الأمر ...

ردَّ الحاج «أحمد»: لا تشغل بالك بأي شيء ... كلُّ شيء سيكون جاهزًا في نفس اللحظة التي تقرر فيها.

قال «أحمد»: بسرعة لقد قررنا.

ردَّ الحاج «أحمد»: متى؟

قال «أحمد»: غدًا قبل أن تُشرق الشمس ...

وقف الحاج «أحمد»، وقال: كما تحبون ... إذن لا بد من بعض الترتيبات البسيطة ثم اتجه الحاج «أحمد» إلى غرفة المكتب ومكث بها لحظات ... اتصل فيها بالتليفون ثم عاد

إلى الشياطين، وقال: كل شيء على ما يرام ... سيكون معكم أحد رجالي الماهرين كي يخرجَ بكم من الشعاب والصخور التي تحت سطح الماء كي لا تصطدموا بها!

أحمد: إننا سنأخذ اللنش المطاطي ... إنها جولة سريعة ...

الحاج «أحمد»: كما تودون!

كانت رائحة الأشجار تملأ الجزيرة مع أنفاس الصباح المقبل ... وركب الشياطين اللنش المطاطي وانطلقوا نحو المجهول ... وسرعان ما كانوا خارج الميناء ... ثم بدأ اللنش يدور حول الرأس الصخرية ويستدير ناحية الشرق ... كانت مياه المحيط هادئة، وأمواجه مسطحة، وكان اللنش ينطلق فيُدرك بعض القوارب الصغيرة، فيتجاوزها وراءه. كان «أحمد» قد ترك «باسم» و«رشيد» و«قيس» في البيت، واقترح أن يقوم بهذه الجولة في المحيط مع «خالد» و«بو عمير» ...

مضَت ساعة واللنش يقطع المسافات في نهمٍ شديد حتى أصبح المحيط حولهم من كل جانب ولم يَعُد هناك أثرٌ للجزر.

خيَّم الصمت على الجميع باستثناء صوت ماكينة اللنش التي كانت تدفع الماء بقوة.

رفع «بو عمير» النظارة المكبرة وأخذ ينظر في اتجاه الشرق ... ثم قال: ليس إلا المحيط ... هل سنظل نُبحلق في المياه كثيرًا؟

ردَّ «أحمد»: ليس أمامنا سوى ذلك حتى نعثر على ضالتنا.

قال «بو عمير»: لقد مرَّ يومان ... ولا يزال الوقت طويلًا ...

ردَّ «أحمد»: إن ما يقطعه اللنش في نصف يوم تقطعه الباخرة في يوم ونصف ...

بو عمير: لقد مرَّت ثلاثُ ساعات ولم نرَ شيئًا ... إنها مجرد مياه ... ربما تكون قد أخذَت طريقًا غير هذا الطريق!

وهنا تدخَّل الصياد «عبد الكريم»، وقال: ليس هناك سوى هذا الطريق ... لا بد أن يمرَّ قريبًا من الساحل لأنه إذا لم يملك إمكانيات السفر في المحيط فسوف يضلُّ ولن يعود أبدًا ...

واصل اللنش رحلتَه السريعة منطلقًا إلى المجهول باحثًا عن قشة سابحة فوق أمواج المحيط العملاق ومرَّت ساعة أخرى ... هدأ «أحمد» من سرعة اللنش ثم أخذ النظارة وأخذ ينظر في كل الاتجاهات لكنه لم يرَ شيئًا ... نظر في ساعته ثم استدار في طريق العودة لقد كان يضبط طريق اللنش عن طريق البوصلة التي في ساعته ...

جذب «عبد الكريم» كيسًا كبيرًا، ثم قرَّبه وفتحه، وأخرج منه بعض السندوتشات وقدَّمها للشياطين وأخرج بعض علب العصائر ... وناولها لهم ... وجلسوا يأكلون ... كان

«عبد الكريم» قلقًا. لقد كان يفكر في شيء ما ... ثم رفع بصره إلى السماء ونظر إلى الشمس، ونظر إلى ظلِّه على اللنش، ثم قال لـ «أحمد»: لقد أخطأنا طريق العودة ...

ردَّ «أحمد»: كيف عرفت؟

قال: الشمس الآن في قلب السماء واتجاه الظل يشير إلى الجنوب، وكان المفروض أن نتجه للشرق في طريق العودة ...

قال «أحمد»: بالضبط ... كما تقول ... لكني انحرفتُ ناحية الجنوب أريد أن أقترب من جزيرة «هنزوان»، ربما تكون الباخرة اتجهَت جنوبًا إلى «مدغشقر».

نظر «عبد الكريم» إلى «أحمد» ثم قال: لقد ظننت أنك أخطأت الطريق ...

ردَّ «أحمد»: إنني أستطيع أن أسافر بك إلى أية نقطة تريدها وأصل بك حيثما تريد تمامًا ...

عبد الكريم: أهي ثقة؟

أحمد: نعم ثقة، ولكن نتيجة علم وخبرة ... أسافر بك ليلًا بالنجوم والبوصلة، وأسافر بك نهارًا بالظلال والبوصلة ... أعطني خريطة أَصِل بك إلى أية نقطة تريدها على وجه الأرض.

مرَّت ساعتان واللنش يقطع مياه المحيط متجهًا للجنوب قليلًا، بدأت الشمس تميل للغروب، ثم لاح لهم على بعد جسمٌ صغير على سطح الماء يبدو بعيدًا، دقق الشياطين النظر ... وأمسك «أحمد» بالنظارة المكبرة، ونظر فيها ثم قال: إنه قارب صيد ...

التفت «عبد الكريم» إليه، وقال: إن قوارب الصيد لا تصل إلى هذه الأعماق ... ربما يكون قد ضل الطريق للعودة ... كم به من الصيادين؟

أحمد: أرى ثلاثة يتحركون.

عبد الكريم: اقترب ... وكن حذرًا ... قد يكونون لصوصًا أو قراصنة ...

ردَّ «خالد»: ماذا يسرقون؟

عبد الكريم: يسرقون البواخر والسفن تحت تهديد السلاح ... يأخذون كل ما يريدون.

نظر «أحمد» إلى «خالد» فأومأ له «أحمد» برأسه ... ففهم «خالد» ما يريد، ففتح الحقيبة وأخرج مدفعًا «رشاشًا» وركَّب أجزاءَه وهيَّأه للاستعمال ثم وضعه فوق الحقيبة.

أصبح القارب على بُعد ثلاثة أميال من الشياطين وبدَا واضحًا تمامًا ... لقد كان القارب متجهًا إلى الجنوب ... اقترب القارب أكثر ... هدَّأ «أحمد» من سرعته ... رأى الشياطين راية بيضاء، فوق القارب ... أصبح الشياطين على مسافة مائة متر من القارب،

فجأة رأى الشياطين قاربًا آخر أكبر من الأول يتسلَّل بجوار القارب، واندفع للأمام دائرًا حول اللنش الذي يستقلُّه الشياطين ويظهر به ستة رءوس لأشخاص يحملون بنادق، ثم ظهر فوق القارب ستة آخرون ... كان القارب واقفًا فوق مياه المحيط لا يتحرك.

بينما كان اللنش الآخر يدور حول الشياطين من ناحية الغرب ... وأصبح الشياطين بين القارب الصغير والكبير لقد حاصرهم القراصنة.

صاح أحد الرجال: سلِّموا أنفسكم دون مقاومة وإلا جعلناكم طعامًا للأسماك!

ثم صاح الآخر: لقد كنَّا نتابعكم منذ الصباح ... لقد آنَ الأوانُ أن تسيروا هادئين، هيَّا بنا يا بُني ... اقترب ... اقترب ...

أدرك الشياطين للحظات أنهم صيدٌ سمين قد وقع في فخٍّ محبوك ولن يُفلتوا ...

نظر «أحمد» إلى «خالد» و«بو عمير» ثم قال جملة واحدة في صوت خافت: جهِّزوا خطة الأفعى.

مدَّ «خالد» يدَه في الحقيبة وأخرج قنبلة صغيرة وأمسكها في يده ثم وقف، ورفع يدَيه لأعلى كالمستسلم، وكذلك فعل «بو عمير»، وسار «أحمد» بالقارب في بطء اتجاه القارب الآخر كأنهم ذاهبون ليسلِّموا أنفسهم، وحين اقترب القارب وأصبح على بُعد عشرة أمتار تقريبًا رفع «أحمد» سرعةَ القارب فجأة، فانطلق كالطائر فوق مياه المحيط واقترب من القارب بحوالي ثلاثة أمتار، فألقى «خالد» بالقنبلة بعد أن نزع فتيلَها في سرعة البرق على القارب، وانحرف «أحمد» باللنش ... وفجأة تحوَّل سطح المحيط إلى جحيم وتناثرَت قِطعُ الأخشاب وبقايا الحطام الآدمي فوق موج المحيط بعد أن تحطَّم القارب الصغير بمن فيه!

حين أدرك قارب القراصنة فرارَ الشياطين، زادوا من سرعة القارب حتى كادت الماكينة أن تحترق ... وكانت المسافة تقترب من المائة متر ... بدأت تضيق وتقلُّ ... وكانت الطلقات تتهاوى في مياه المحيط كحبَّات المطر ...

اقترب لنش القراصنة من الشياطين، لقد أصبح على مقربة خمسين مترًا ...

عمل «أحمد» مناورةً سريعة ... فغيَّر من اتجاه القارب إلى الجنوب، فاتسعَت المسافة مرة أخرى، لكن الطلقات كانت تسقط قريبًا منهم من اليمين ومن الشمال ...

اندفع الشياطين فوق مياه المحيط والقراصنة من خلفهم ... وفي لهجة سريعة طلب «أحمد» من «خالد» و«بو عمير» أن يستعدَّا بالمدفع الرشاش ...

أحمد: «خالد» سأدور باللنش للخلف بمنتهى السرعة، فتشبثوا باللنش جيدًا، وحين يستقيم اللنش في الاتجاه المعاكس سنكون على نفس الخط الذي سيندفع فيه القراصنة

... أريدكم أن تُمطروهم بالرصاص، هذه فرصتنا الوحيدة للنجاة ... وكالبرق الخاطف تمكَّن «أحمد» من إدارة اللنش للخلف، ولم تمضِ ثوانٍ قليلةٌ حتى كان الشياطين بمحاذاة القراصنة، فأمطروهم بالرصاص ... وركز «خالد» الطلقات في جسم اللنش المطاطي الذي انفجر كالبالونة وتهاوَى القراصنة في الماء، والتفتَ الشياطين يرقبون الموقف والقارب مندفع في طريقه، لكن كان هناك خللٌ في المقدمة ... لقد أصابَته طلقةٌ فانفجر هذا الجزء ...

هدأ «أحمد» من سرعة القارب، الآن لم يَعُد هناك خطرٌ؛ فقد انشق المحيط وابتلع القراصنة ... لقد أصبحوا طعامًا «شهيًّا» لأسماك المحيط الجائعة لقد تخلَّصت البشرية من بعض الشر ... توقفوا لحظات، أخرج «بو عمير» أنبوبة بها مادة لاصقة ثم مسح الجزء المحيط بمكان الطلقة ووضع عليه بعضَ المادة اللاصقة وتركه ... ثم جذب الجيب الجلدي الملتصق بجانب اللنش والذي توضع فيه الأشياء الصغيرة والمسامير وبعض قطع الأسلاك ثم نظَّفه، ووضع عليه شيئًا من المادة اللاصقة ... ثم تركه لحظاتٍ ووضعه فوق مكان الطلقة وضغط عليه بيده ... فأغلق الثقب ...

ضحك «عبد الكريم» ثم قال: لقد كانوا ينوون بنا شرًّا.

قال «أحمد»: قم وهات المنفاخ وانفخ مقدمة اللنش.

وقف «عبد الكريم» ووضع المنفاخ تحت قدمه ثم بدأ يقفز ويضغط على المنفاخ حتى عادَت مقدمة القارب كما كانت، وارتفع صوت الموتور يهدر فوق مياه المحيط ويشقُّ صفحتَها ولم يتبقَّ من النهار سوى ثلاث ساعات ولا بد من الوصول قبل حلول الظلام.

مضت ساعة ... قال «أحمد»: لقد أنجزنا شيئًا مهمًّا ...

ساد صمتٌ قصيرٌ بعد هذه الجملة ... ثم قال: لو لم نُقابلهم اليوم ربما قابلناهم في ظروف أسوأ ...

ردَّ «خالد»: من الواضح أنهم كانوا ينتظرون شيئًا ... وأنهم يؤمِّنون الطريق ...

سكت «أحمد» لحظة ثم قال: لقد استهلكنا وقودًا كثيرًا ... ماذا بقيَ يا «عبد الكريم»؟

هزَّ «عبد الكريم» خزاناتِ البنزين الصغيرة، وقال: بقيَ القليل!

أحمد: هل سيكفينا حتى نعود؟

عبد الكريم: أتمنَّى ذلك حتى لا نبيتَ فوق مياه المحيط.

مرَّت ساعتان واقترَبت الشمس من المغيب، لقد بقيَت ساعة على الغروب ... أمسك «خالد» بالنظارة المكبرة وجعل ينظر ...

أحمد: هل رأيت شيئًا؟

خالد: انتظر لحظة ... أرى أشباحًا فوق ماء المحيط ...

أحمد: ناولني النظارة ...

أمسك «أحمد» بالنظارة ودقَّق النظر ثم قال: إنها الجزيرة ... لكنها ما زالت بعيدة. فجأة انتهى الخزان الذي كان موصولًا بموتور القارب، وقرَّب «عبد الكريم» الخزان الأخير ونقل فيه الخرطوم وواصل القاربُ اندفاعَه ...

أوشكت الشمس على المغيب وبدأت خيوط الظلام تتسلل إلى الأفق من الشرق ... وشيئًا فشيئًا بدأت الجزيرة تتضح للعيون ... حتى بدَت كقطعة إسفنج بيضاء فوق ماء المحيط ...

وقف «عبد الكريم» ونظر ثم قال: سندخل بعد غروب الشمس، لقد اقتربنا، المهم ألَّا ينفدَ الوقود، كانت الشمس قد بدَت فوق سطح الماء كقرص مشتعل ... ثم راحَت تتلاشى حتى ذابَت في ماء المحيط وبقيَت ذيول أشعتها تملأ الأفق ... وحين اقتربوا من الرأس الصخرية التي تقبع أول الميناء ... توقَّف المحرك، لقد نفد الوقود، ولم يجد الشياطين حيلةً يُكملون بها المسافة حتى يصلوا إلى الرصيف، فتركوا الأمواج تدفع القارب مع اتجاه الريح.

كان الحاج «أحمد جوهر» يزرع الشاطئ ذهابًا وإيابًا ... لقد أصابه القلق والتوتر بعد أن ظن أنهم تعرَّضوا لسوء ... وحين أخبره الصيادون بوجود القارب قريب من مدخل الميناء لم يتردد في إدارة قاربه الكبير وقاده بنفسه حتى وصل إلى حيث يستقر اللنش، وألقى لهم حبلًا ثم قطرهم خلفه واتجه للشاطئ.

ظل الحاج «أحمد» صامتًا لا يتكلم حتى وصلوا إلى البيت، ثم فاجأهم بسيل من الأسئلة ... وكان «قيس» و«باسم» و«رشيد» قد استولى عليهم القلق أيضًا، لقد كان المفروض أن يصلوا قبل المغرب بساعتين على الأقل، فماذا حدث؟

لم ينتظر الحاج «أحمد» أن يجيبوا عن أسئلته بل تركهم حتى دخلوا الحمام واغتسلوا وبدلوا ملابسهم ثم جلسوا يتناولون الطعام ... وفي هذا الوقت بدأ «أحمد» يحكي لهم ما حدث ...

وهنا اندفع «عبد الكريم»، وقال: لقد شاهدت الموت بعيني ... لقد نمت في القارب حتى أموت وأنا نائم ولا أرى ما يحدث ... ضحك الشياطين ... وضحك الحاج «أحمد»، وقال لـ «عبد الكريم»: كنت أحسبك صيادًا قويَّ القلب!

ردَّ «عبد الكريم»: أنا كنت أحسب نفسي أيضًا صيادًا ماهرًا حتى رأيت هؤلاء فعلمت قدري أني لست ماهرًا ولا حتى صيادًا.

ثم التفت إلى الحاج «أحمد»، وقال: إنهم ليسوا بشرًا عاديِّين مثلنا يا حاج، إنهم شياطين ... قد عُجِنوا بماء الشياطين ...

ضحك الحاج «أحمد» وقال: فعلًا ... إنهم الشياطين ألا تعرف ذلك؟

رسالة من عمالقة المحيط!

أشرقت شمس صباح اليوم الثالث، وبدأ الشياطين في العد التنازلي للأيام القليلة الباقية على مرور السفينة المختطفة ... لقد بدءوا في وضع خطة محكمة لمواجهة خاطفي السفينة وتفادي الخطر القادم معها ... خرج «باسم» و«رشيد» للميناء لتجهيز قارب الحاج «أحمد جوهر»، وعمل كاتم لصوت الموتور حتى يتحركوا في سرية وهدوء ...

نزل «باسم» و«رشيد» إلى غرفة الماكينة، لم يكن هناك سواهما ... لقد تأخر بقية الشياطين في بيت الحاج «أحمد»، وتركوا «باسم» و«رشيد» يقومان بهذه المهمة حتى يكونوا مستعدين في الأيام القليلة الباقية ... وظلَّا ساعة يفكَّان أجزاء ثم يركبانها حتى تلوثَا من الشحم والزيت ... لكن كان هناك شيء غريب يحدث بالخارج ... لقد كان هناك لنش مطاطي يقترب في هدوء حتى التصق بالقارب ... وصَعِد منه ثلاثة رجال أحاطوا بالغرفة ... وهنا لاحظ «باسم» و«رشيد» ما يحدث.

فصَعِد «باسم» درجتَين من السلَّم الخشبي ثم نظر حوله فوجد ثلاثة يقفون صامتين ... وكان في يد اثنين منهما مسدسان ... أشار الثالث لـ «باسم» أن يصعد ... فصَعِد دون أن يتكلم ... وحين وضعَ رِجْلَه على آخر درجات السلم الخشبي حاول أن يدفع الرجل إلى الماء ... لكن كانت هناك ضربة قوية أخذَت طريقَها إلى رأسه، فسقط على ظهر القارب فاقد الوعي ... أخرج «رشيد» رأسه لينظر ما يحدث؟ وأين ذهب «باسم» فوجد هؤلاء حوله، فاقتربوا منه ثم صوبوا مسدساتهم إلى رأسه ...

فخرج ثم أوثقوا يدَيه وأنزلوه بهدوء إلى اللنش المطاطي ... لقد كان هناك شخصان آخران ينتظران في اللنش ... ثم صَعِد أحدهم ووضع رسالة في جيب «باسم»، وانطلقوا خارجين من الميناء ...

مرَّت عشر دقائق و«باسم» ملقًى على ظهر القارب ... ثم بدأ يتحرك ويتحسَّس رأسَه، ثم اعتدل وأخذ ينادى «رشيد» ... «رشيد» ... أين أنت؟

قام من مكانه بصعوبة ... فما زال يشعر بالألم، نظر في القارب ... لم يجد لـ «رشيد» أثرًا ...

أحسَّ بشيء خشن في جيبه ... وضع يدَه على جيبه فوجد ورقة أخرجها ونظر فيها: «أمامكم وقتٌ لتغادروا الجزيرة حتى صباح غدٍ ... وإلا ... فلا تفكروا في صاحبكم إلى الأبد، الإمضاء: عمالقة المحيط ...»

أحسَّ «باسم» بشيء من الإحباط والضيق، وقفز إلى الشاطئ يترنَّح ويضع يدَه كلَّ فترة على رأسه يتحسَّسها ... وأسرع حتى وصل إلى البيت حيث يقيم الشياطين ...

ودخل «باسم» مترنِّحًا وارتمَى على أحد المقاعد ... وقف الشياطين واقترب «أحمد» منه، وقال: ماذا حدث؟ وأين «رشيد»؟

لم يستطع «باسم» الكلام ... أخرج الورقة وناولها لـ «أحمد» ... نظر «أحمد» فيها، ثم فركها بيده، وقال: قراصنة ... لقد خطفوا «رشيد».

حكى «باسم» ما حدث حتى تلقِّي الضربة وسقوطه!

أحمد: ومنذ متى حدث هذا؟

باسم: من ثلث ساعة تقريبًا.

صاح «أحمد»: «خالد» ... «بو عمير» ... بدِّلَا ملابسكما واستعدَّا في لحظات ...

في ثوانٍ قليلة كان الثلاثة قد استعدوا ... وخرجوا مسرعين إلى الميناء ... لقد كانت المسافة قصيرة لا تحتاج إلى سيارة ... ومروا في طريقهم على الحاج «أحمد» وقصُّوا عليه ما حدث ... فأشار عليهم أن يأخذوا ماكينة أخرى للنش المطاطي وينطلقوا بهما ... فذلك ... أسرع ...

حمل الثلاثة الماكينة، وأسرعوا بها إلى الشاطئ حيث اللنش المطاطي وأركبوها بجوار الماكينة الأخرى ثم نقلوا عدة خزانات للوقود إضافية ... ثم دفعوا اللنش المطاطي بعيدًا عن الشاطئ ... وأمسك «أحمد» بالماكينة الأولى يُديرها وجذب «خالد» ذراعَ الثانية ليُديرَها ... فقفز اللنش فوق الماء كالنورس الرشيق ... ثم جذب الثلاثة نظارات الماء فوق أعينهم ... وطاروا إلى المجهول ...

كان اللنش لا يكاد يلامس الماء من سرعته ... وكانت نفوس الشياطين الثلاثة تغلي من الداخل، يكادون يطيرون من فوق اللنش للحاق بهؤلاء القراصنة، رفع «بو عمير» المدفع

الرشاش بذراعه اليمنى ... كأنه يقتحم معركة فاصلة ... كان يتمنى أن يرى أيَّ أثر لهؤلاء القراصنة، ثم نظر إلى «أحمد» وهو ما زال ممسكًا بالمدفع: إلى أي اتجاه نحن ذاهبون؟

أحمد: ليس بعيدًا إنهم قريبون من هنا ... فلا بد أنهم في إحدى الجزر ... إنهم فقط يلاعبوننا حتى يمرَّ الهدف وهم يريدون أن يجعلوا «رشيد» ورقةَ ضغط علينا ...

كان اللنش متجهًا إلى الجنوب في الطريق إلى جزيرة «مايوتة»، فهي الوحيدة التي يمكن أن تأويَ هؤلاء القراصنة ... لأنها لا تزال خاضعة للنفوذ الفرنسي وهي في طريق السفينة وربما تتوقف فيها لتتزود بالوقود ...

أمسك «خالد» بالمنظار المكبر ثم نظر وجعل يدور لليمين والشمال ثم ركز نظرَه في اتجاه جزيرة «مايوتة»، ثم أشار بيده في اتجاه مقدمة اللنش ثم هتف: إنهم هناك ... في مقدمة اللنش ... مدَّ «أحمد» يدَه وتناول المنظار ثم نظر طويلًا ... لقد كانوا على مسافة بعيدة منهم ... وبدوا من بعيد كأعواد ثقاب فوق سطح المحيط ... هزَّ «أحمد» رأسه ... ثم قال: لن نُدركَهم ... لكن قد عرفنا اتجاههم ...

التفت «بو عمير» إلى «أحمد»، وقال: لكن ... هل تظنُّ أننا مراقبون من الجزيرة؟ أخشى أن نعود فلا نجد «باسم» و«قيس» ...

ردَّ «أحمد»: هم يعلمون أننا بالجزيرة ... لكنهم لا يستطيعون مراقبتَنا من الجزيرة لأنهم سينكشفون بسرعة ... فالجزيرة محدودة ... وهم لا يخفون على أهل الجزيرة، لكن أستطيع أن أقولَ لك بثقة إنهم يراقبون تحرُّكاتِنا من خارج الجزيرة من المحيط فقط ... ولذلك انتظروا حتى تمكَّنوا من «باسم» و«رشيد» ثم فروا هاربين ...

قال «بو عمير»: وماذا سنفعل إزاء هذه التهديدات؟ لقد فتحوا أمامنا جبهة ثانية ...

أحمد: إنهم يريدون أن يشغلونا عن المهمة الأصيلة بالبحث عن «رشيد» حتى يتمكنوا من الإفلات بالغنيمة ... لكننا لن نجعلَهم يفرحون بها ... ثم رفع «أحمد» المنظارَ المكبر، وهدأ من سرعة اللنش ... الذي كان يقتحم الماء كالحوت ويطوي المسافات كالسهم ... ثم أخذ ينظر ... ثم قال لـ «قيس»: أوقف الماكينات ...

أوقف «قيس» الماكينات، وأطال النظر في المنظار، وأخذ يُخبر زملاءَه بما يراه ... لقد وصلوا إلى الشاطئ الآن ... إنهم يدفعون «رشيد» إلى الشاطئ ... إنهم يصعدون الصخور ... هناك آخرون ينتظرونهم ... ما هذا؟ بناية عالية بيضاء ... إنها قلعة ... إنهم يدخلون القلعة ...

بو عمير: ألن نقترب؟

أحمد: لا ... إنها مغامرة غير مضمونة العواقب ... كأننا نقدم أنفسنا هدية لا بد من خطة، إنك تواجه قراصنة ... ولا تعرف كم عددهم؟ ولا كم عدد مَن في القلعة؟ إن الاقتراب معناه الانتحار ...

بو عمير: وماذا سنفعل بعد ذلك؟

أحمد: سنعود إلى جزيرتنا ... وسنعود لهم بالمفاجآت، وقبل أن يأتيَ الغد سيكون «رشيد» بيننا.

كان القراصنة قد أدخلوا «رشيد» على زعيمهم الذي يقطن الدور العلوي من القلعة ... لقد كان يُشبه الشيطان الأسود ... ليس فيه شيء أبيض إلا أسنانه ... أشعث الشعر بلا ثيابٍ تقريبًا ... وكان يجلس على مقعد منحوت من الصخر، نظر زعيم القراصنة إلى «رشيد» كالذئب المفترس، ثم ضرب الأرض بقدمه وصاح: صبية ... أطفال صغار ... من أين جئتم أيها الصبي؟

لم ينطق «رشيد» ... بل جلس ينظر إلى هذا الكائن الغريب بمنتهى الهدوء ...

انتفض زعيم القراصنة من لا مبالاة «رشيد»، وصاح: لماذا جئتم إلى هنا؟ ألَا تخافني؟ ألَا تعرف «أوكارا» سيد البحر والبر؟ إنك ما زلت صغيرًا ... لم تسمع عني من قبل ...

لم يردَّ «رشيد» عليه سوى أن نظر عاليَه نظرةَ استخفاف ... استأنف زعيم القراصنة كلامه ... اسمع أيها الصبي ... لقد أمهلتُ الصغارَ زملاءَك حتى صباح غدٍ ليرحلوا من هنا ... لقد كان بإمكاني أن أطحنَكم وأجعلكم لحمًا مفرومًا لرجالي، فهم يتشوقون إلى اللحم الآدمي ... لكنكم ما زلتم صغارًا ... لذا منحتكم فرصة ذهبية ... وإلا سأتغدَّى بك غدًا ويتعشَّى رجالي بزملائك ... خذوه إلى الزنزانة ...

جرَّ القراصنة «رشيد» وأنزلوه في غرفة صخرية مظلمة أسفل القلعة، رطبة وعفنة.

أحسَّ «رشيد» بالغثيان، فجلس على أرض الغرفة التي كانت عبارة عن قِطَع أحجار صغيرة وزلط ورمال ... وكان بها طاقتان صغيرتان بعيدًا عن السقف يأتي منهما بعضُ الضوء ...

مرَّت ساعةٌ و«رشيد» يروح ويجيء كالأسد الثائر المحبوس ... لا يقدر على فعل شيء ... ثم أحسَّ بشيء يصطدم به وهو يمشي في الغرفة ... فنظر فإذا هي ثمرة جوز الهند ألقَوها له من أعلى الباب الذي توجد به فتحةٌ مملوءة بالأسياخ الحديدية ... نظر إليها «رشيد» ثم قال: لا بأس ... إنها تكفي ...

جلس الشياطين في بيت الحاج «أحمد جوهر» بعد الغروب وقد ألمَّ بهم القلقُ والخوف على «رشيد»، وراح «أحمد» يشرح لهم كيفية الوصول إلى «رشيد» ... ووضع خطة لاقتحام القلعة من الناحية الأخرى، لكن كانت هناك مشكلة ... إن القراصنة يراقبون الميناء، وأي تحرك للشياطين سيكون ملاحَظًا، ولا بد من التحرك بعيدًا عن أعينهم ...

كان الحاج «أحمد جوهر» يجلس في مقعده بعيدًا، لكنه كان يتابع الخطةَ كلَّها، ثم قال: عندي اقتراح للخروج من هذه المشكلة ...

قال «أحمد»: ما هو؟

ردَّ الحاج «أحمد»: رأيي أن أستأجرَ لكم قاربًا من أحد المرافئ الشرقية ثم تنطلقوا من هناك، وهكذا لن يراكم أحد ولن يفكر أحد في أنكم ستخرجون بهذه الطريقة بعيدًا عن غرب الجزيرة كلِّها، لكن هذا سيستغرق ساعتين إضافيتَين.

هتف «خالد»: إنها خطة جديدة وليس اقتراحًا ... ومتى نستطيع فعل ذلك؟

الحاج «أحمد»: في أي وقت؟

ردَّ «أحمد»: أفضِّل أن يكون الآن يا حاج «أحمد» ... فليس أمامنا وقتٌ فقد أمهلونا حتى الصباح!

وقف الحاج «أحمد»، وقال: وهو كذلك تعالَ معي الآن نُتمم الصفقة حتى تكونوا جاهزين للانطلاق في أية لحظة.

ركب الحاج «أحمد جوهر» سيارتَه و«أحمد» بجواره، وانطلقَا في الاتجاه الشرقي للجزيرة، لم يمضِ سوى ثلث ساعة حتى كانَا أمام أحد المقاهي قريبًا ... من الشاطئ، خرج الحاج «أحمد» من السيارة وتَبِعه «أحمد» ودخلَا المقهى ... وأشار الحاج لـ «أحمد» كي يجلس وجلس بجانبه، ثم نادى الحاج «أحمد»: يا «عبد الله» ... يا «عبد الله» ... مرَّت ثوانٍ قليلة، ثم جاء شابٌّ قمحيُّ اللون، نحيف الجسم تتدلَّى شعيرات قليلة من ذقنه، ثم انحنى وسلَّم على الحاج «أحمد» ...

انتظر الحاج لحظة ثم قال: هات لنا كوبَي كاكاو ... ثم في لمح البصر تذهب وتُحضر لنا الحاج «عبده السقاف». هزَّ «عبد الله» رأسَه، ثم قال: سمعًا وطاعة يا سيدي الحاج ...

مضى «عبد الله» وراح «أحمد» يتحدث مع الحاج ثم قال: لقد لاحظتُ أن معظم الأسماء هنا مضافة لكلمة «عبد» ... «عبد الكريم» ... «عبد الله» ... «عبده» ...

قال الحاج «أحمد»: الإنسان القمري مسلم يعتزُّ بإسلامه ويحرص على كل شيء يمسُّ دينه وعقيدته ... ولذلك ستجدهم يسمون كثيرًا من أبنائهم «عبد الله» ... «عبد الكريم» ...

ردَّ «أحمد»: لقد لاحظت أنهم طيبون بالفطرة ومسالمون ...

مرَّت دقائق ثم أقبل «عبد الله» في صحبة رجل وقور يرتدي جلبابًا وفوقه عباءةٌ بُنِّيَّة اللون وطاقية ... بلون العباءة، وما إن رآه الحاج «أحمد» حتى قام إليه يصافحه ويحتضنه ... وتبادلَا السلام والتحية، وسلَّم الحاج «عبده» على «أحمد» ثم جلس بجوارهم، وأحضر له «عبد الله» فنجانًا من القهوة ... وتحدَّثَا قليلًا ... وتعاتبَا على طول الفراق ... ثم التفت الحاج «أحمد» إلى «أحمد»، وقال: ولدي «أحمد» ... جاء في زيارة من مصر ...

ردَّ الحاج «عبده»: أهلًا ولدي ومرحبًا بك من بلد الطيبين ...

استأنف الحاج «أحمد» كلامه: ولدي «أحمد» وإخوانه جاءوا يبحثون عن مجال يستثمرون فيه أموالهم، شباب ويحبون المغامرة ...

الحاج «عبده»: عظيم ... وهل توصَّلتم لشيء؟

الحاج «أحمد»: نعم ... إنهم يفكرون في تسويق الأسماك ... لكنهم يريدون أن يتعرفوا على بعض الأشياء في جزيرة «مايوتة» و«هنزوان»، وقد جئنا نستأجر لنشًا يكون تحت أيديهم لمدة يومين حتى تنتهيَ مهمَّتُهم ...

الحاج «عبده»: كل قواربي رهنُ إشارتك ...

الحاج «أحمد»: شكرًا لك يا أخي ... ومتى نجدها جاهزة؟

الحاج «عبده»: أنا جاهز ومستعدٌّ من الآن ... تعالَ لنُلقِ عليها نظرة عند الشاطئ ...

سار الثلاثة تحت أضواء المصابيح الخافتة والريح الرقيقة تجلب لهم من بعيد خليطًا من الروائح والعطور المنعشة ... كان الجو ساحرًا كأنها فعلًا جزر على القمر ... ساحرة جميلة إلى درجة لا توصف ...

بعد دقائق قليلة وصل الثلاثة إلى مرفأٍ صغير محاطٍ بالصخور الضخمة ... وكانت ترقد في مياهه عدةُ قوارب ولنشات مطاطية ... اقترب الثلاثة وتسلَّقوا الصخور، ووقفوا بإزاء القوارب واللنشات. نظر الحاج «عبده» إلى الحاج «أحمد جوهر»، وقال: اختر أيهما شئت!

صمت الجميع لحظة، ثم قال الحاج «عبده»: رأيي أن تأخذوا «الظافر».

نظر «أحمد» إلى الحاج «عبده» مستفهمًا ... قال الحاج «عبده»: هذا اللنش اسمه «الظافر»، وهو دائمًا «ظافر»، فهو سريع ... خفيف ...

قال الحاج «أحمد»: على بركة الله ...

هزَّ «أحمد» رأسَه موافقًا ثم قال للحاج «عبده»: سنأتي أنا وزملائي لنستقلَّه أثناء الليل ... لأن جولتنا ستستغرق ساعات طويلة في بقية الجزر ... لذا سنخرج مبكرين حتى نعود غدًا قبل مغيب الشمس.

ردَّ الحاج «عبده»: إنه من الآن تحت سيطرتكم ... فافعلوا ما تريدون.

وعاد الثلاثة إلى المقهى حيث بقيَ الحاجُّ «عبده»، وعاد الحاج «أحمد جوهر» ومعه «أحمد» في السيارة إلى البيت ...

بدأ الشياطين منذ لحظة وصول «أحمد» يجهزون أشياءهم للانطلاق ... فارتدوا ملابس البحر ... وأعدوا الأسلحة والذخائر ... ووضع «خالد» عدة قنابل صغيرة في حقيبة خاصة ... ثم حمل «بو عمير» قاذف اللهب ... اطمأن الشياطين الخمسة إلى أن مسدساتهم محشوة بالرصاص وجاهزة للاستخدام.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، أي قبل منتصف الليل ... وكان الشياطين جاهزين للانطلاق والحاج «أحمد جوهر» يجلس قريبًا منهم ... وبعد أن فرغوا من الاستعداد قال الحاج «أحمد»: أريد أن أقول لكم شيئًا مهمًّا.

ردَّ «أحمد»: ما هو يا حاج؟ ...

الحاج «أحمد»: إن القلعة التي تصفونها في شمال الجزيرة ... ولأن هذه المنطقة غير معمورة لوعورتها فإني أرى من الخير لكم أن تأتوها من الغرب حيث تكثر الصخور ... لأن هؤلاء القراصنة لن يفكروا في مجيء أحد من هذه الناحية ... ستواجهون بعضَ التعب في التسلل والصعود إلى أعلى وبين الصخور ... لكن هذا هو الطريق الوحيد الآن المأمون ...

ردَّ «خالد»: شكرًا يا حاج «أحمد» ... إنها فعلًا ... معلومات مهمة ...

الحاج «أحمد»: وشيء مهم آخر ... موعدكم هنا مغيب الشمس ... وإن تأخرتم، فستجدون كلَّ الزوارق والقوارب قد أتت وحاصرت الجزيرة ...

أحمد: لا ... اطمئن ... سيكون كلُّ شيء على ما يرام ... وسوف نتناول معك العشاء ...

كانت الساعة قد دقَّت تمام الثانية عشرة ...

عندئذٍ وقف الشياطين الخمسة وحملوا أشياءَهم ... نظر «أحمد» إلى الحاج «أحمد جوهر»، وقال له: لا بد أن نكون هناك قبل الصبح على الأقل بساعتين حتى نفاجئَهم ...

ردَّ الحاج «أحمد»: كما ترون!

نزل معهم الحاج «أحمد» كي يُوصلَهم بسيارته إلى حيث يستقر اللنش بعيدًا ... عن أعين القراصنة ... وأنزل الشياطين أشياءَهم في قلب اللنش ثم خرجوا يجدفون حتى يبتعدوا عن الشاطئ دون إحداثِ صوتٍ، وحين ابتعدوا قام «خالد» وأدار المحرك بقوة، فقفز اللنش، ثم صاح «أحمد»: قادمون إليكم يا «أوكارا» ... سنجعل السمك يضحك عليكم يا عمالقة المحيط ...

الشياطين في الوكر!

كان اللنش المطاطي ينزلق على سطح الماء في خفة ورشاقة وسرعة ... كأنه هو الآخر متشوقٌ للقاء «أوكارا». مرَّت ساعة والشياطين فوق سطح المحيط ليس من حولهم شيءٌ يوحي بالحياة ... الظلام شديد ... ليس من شيء يظهر أو يلمع إلا النجوم من فوقهم ... لا أثرَ للحياة إطلاقًا ...

الوقت يمرُّ سريعًا ... ورغم البرد الذي يشعر به الشياطين من سرعة انطلاق اللنش واصطدام الهواء بأطرافهم إلا أن الغضب والحماسة التي في نفوسهم أنسَتهم الشعور بالبرد ...

كان الشياطين يجلسون على جانبَي اللنش ممسكين بقطع من الحبال وُضعَت خصيصًا لهذا الغرض عندما جاءهم صوتُ «أحمد» يغالب صوت المحرك وصوت الهواء وهو يقول: لقد اقتربنا ... ولا بد أن نكون على دراية كاملة بما سنصنعه ... قبل أن نصل بمسافة معينة سنُطفئ المحرك ونجدف حتى نَصِل إلى الشاطئ ... ثم نتسلل حتى نقتربَ من القلعة ... ثم ننقسم إلى ثلاث فِرَق ... «خالد» و«بو عمير» من اليمين، و«قيس» و«باسم» من الشمال، وأنا من الوسط، ثم نطبق على القلعة ... لا بد أن نصل إلى «رشيد» قبل أن تطلع علينا الشمس وإلا أصبحنا فريسة سهلة لهم ...

قال «بو عمير»: قد يكونون معتصمين بالقلعة ... ويمكن أن ندور حولها ولا نجد لهم أثرًا ...

أحمد: ماذا سنصنع بقاذف اللهب؟ لا بد أن تُزيلَ أيَّ عائق ... لا بد أن نَصِل إلى «رشيد» حتى لو هدمنا القلعة ... وليكن معلومًا لديكم ... إذا كانوا عشرة فكلُّ فردٍ منَّا نصيبُه اثنان وإن كانوا خمسين فكلُّ فردٍ منَّا نصيبُه عشرة ... لا عذرَ لنا إن رجعنا بغير «رشيد» ...

اقترب الشياطين من الجزيرة ... أطفأ «أحمد» المحرك وأنزلوا مجدافَين صغيرَين. وبدءوا يجدفون تجاه الجزيرة التي كانت تبدو كجبل أسود ضخم تحت ضوء النجوم.

بدأ الشياطين يشعرون بالدفء حين بدءوا يجدفون. ضغط «أحمد» على زرٍّ صغير في ساعته فأضيئَت، فنظر فيها ليعرف كم بقيَ على الفجر؟

كانت الساعة قد أوشكَت على الثالثة والنصف ... هتف «أحمد» في الشياطين: هيَّا أيها الأبطال ... لم يبقَ إلا القليل ... النهار قادم ... و«رشيد» ينتظرنا ...

مرَّت عشر دقائق والشياطين يجدفون ... لقد اقتربوا أكثر من الجزيرة إنهم يجدفون بجوار الصخور الأمواج ساكنة ... واللنش يسير ببطء دون إحداث ضجيج.

وقف «أحمد» ينظر إلى الصخور ... ثم قال بهدوء: يجب أن نختار مكانًا ننزل فيه إلى الشاطئ.

ثم أمرهم بعد لحظات أن يتوقفوا عن التجديف ... ثم انحرف بالمحرك ليتجه باللنش بين الصخور حتى توارى، ثم تقدَّم «خالد» إلى مقدمته، وأمسك بالحبل ثم قفز على قطعة صخر مستوية، وجذب اللنش إليه، ثم ربطه بإحدى قطع الصخور ... بدأ الشياطين يُنزلون أشياءهم إلى الشاطئ ... ثم خرجوا جميعًا وحمل كلٌّ واحد منهم ما يخصُّه وساروا وسط الصخور ... يصعدون ويهبطون ...

قال «أحمد»: فعلًا ... لا أثرَ للحياة هنا كما قال الحاج «أحمد» ... إنها منطقةٌ وعرة لا تصلح للحياة ... لا تصلح حقًّا ... إلا للقراصنة الذين يعيشون في الظلام والخراب ... وكانوا يمرُّون بعد كلِّ فترة بمجموعة من الأشجار ونخيل جوز الهند، فيقول «خالد»: طبعًا من هذا يأكلون ... إنها لحياة رخيصة فعلًا ...

أمضى الشياطين ربع ساعة يسيرون فوق الصخور ويتسللون بين الأشجار حتى أصبح الهدف قريبًا منهم ... فتوقَّفوا لحظات ... واقترح «أحمد» أن يستريحوا دقائق يلتقطون فيها أنفاسهم ثم يواصلوا الهجوم على قلعة «أوكارا»، واطمأن «أحمد» على استعداداتهم. ثم تفرَّقوا إلى اليمين والشمال، وبقيَ «أحمد» وحده متجهًا إلى القلعة التي بدَت ساكنة صامتة كصمتِ القبور ... أطبق الشياطين على القلعة من كل الجوانب ... لكن لم يكن هناك أحدٌ على الإطلاق وبدَت كأن أحدًا ليس بداخلها.

أدرك «أحمد» هذا فظنَّ أنها خدعة ... فتسلَّل في خفاء حتى وصل إلى «خالد» و«بو عمير»، ثم قال: ألم تلاحظَا شيئًا؟

ردَّ «بو عمير»: لا ... أيمكن أن يكونوا غادروها؟

أحمد: وأين سيذهبون؟ ... لا ... إنهم لم يفارقوا هذا المكان ... إنهم فقط مطمئنون ... ومَن ذا الذي سيأتيهم أو يفكر في المجيء إلى مكان كهذا في مثل هذا الوقت؟

سار «أحمد»، و«بو عمير»، و«خالد» في شبه قوس حول القلعة حتى وصلوا إلى الباب الضخم ... فوقفوا بعيدًا ملتصقين بالصخور ...

قال «أحمد»: سنبدأ في اقتحام القلعة بتسليط قاذف اللهب على المفصلات الحديدية والمزاليج حتى يسقط الباب ... وسنكون نحن قد صعدنا إلى القلعة من الناحية الأخرى عن طريق التسلق بالحبال وسنتقابل داخل القلعة!

جرى «أحمد» متخفيًا حتى وصل إلى «باسم» و«قيس»، وقال: الآن نبدأ الهجوم. ناولني الحبل والخُطَّاف.

كان «قيس» قد وضع الحبلَ والخطاف في كتفه ... فأنزله على الأرض ثم قام بفكِّه، ثم ناوله لـ «أحمد» الذي تأكَّد من قطعة «الكاوتشوك» التي وضعها فوق الخطاف حتى لا يُحدثَ صوتًا حين يصطدمُ بالصخور أو بأيِّ حائط صلب.

أمسك «أحمد» بطرف الحبل القريب من الخطاف ثم لفَّه عدة لفات ثم قذف به لأعلى القلعة ... اشتبك الخطاف بشيء، جذب «أحمد» الحبل بقوة ليتأكد من تمكُّن الخطاف فوجده متينًا ... قفز «باسم» على الحبل ثم تسلَّق برشاقة ... وحين أوشك على الوصول رأى «أحمد» شبحًا يقترب من الحبل، ونظر لأسفل فوجد «باسم» معلَّقًا، ومدَّ الشبح يدَه ليقطع الحبل ... لكن كانت طلقة سريعة من مسدس «أحمد» الكاتم للصوت قد وصلَت إلى الرجل قبل أن تمتدَّ يدُه إلى الحبل ...

في هذه اللحظات كان «باسم» قد أكمل تسلُّقَه حتى وصل أعلى القلعة ثم وقف يؤمِّن «أحمد» و«قيس» حتى صعدَا ... كان «بو عمير» قد حوَّل ظلامَ الليل إلى نهار بقاذف اللهب الذي سلَّطه على باب القلعة، وسرعان ما تهاوى كأنه أعوادٌ من القش ... مما جعل القراصنةَ يتدافعون كالنمل داخل القلعة ... وعلَا الصياح. هبط «أحمد» الدرجَ إلى أسفل ... وكان بعض القراصنة يأتي مندفعًا إلى أعلى وهو واثق أنه آمن فيجد بابًا آخر من أبواب الجحيم مفتوحًا أمامه حيث تصطاده الرصاصاتُ الغاضبة من مسدسات «أحمد» و«باسم» و«قيس»، وكان بعض القراصنة يجري مندفعًا لأسفل ليردَّ الهجوم عن القلعة فيجد أمامه جهنم الحمراء قد فتحَت أبوابها لتشويَه.

اندفع «بو عمير» و«خالد» صاعدَين درجات السلالم إلى أعلى ... ولم يعرفَا أن «رشيد» مسجون بزنزانة أسفل القلعة وقد تركاها وصعدَا. كانت أصوات الطلقات تتطاير في كل ركن من أركان القلعة ... وتقابل الشياطين في منتصف القلعة، وأصبح القراصنة بين فكَّي

الأسد، لقد اعتصموا بإحدى القاعات الكبيرة وأغلقوا بابها جيدًا ... اقترب «بو عمير» من الباب ومعه قاذف اللهب ليدمرَ به الباب ... لكن «أحمد» أوقفه، وقال: لو انفتح الباب سيغمروننا بالطلقات ... لكن عندي فكرة ... تعال معي أعلى القلعة.

صَعِد «أحمد» و«بو عمير» أعلى القلعة ... وجاء «أحمد» بالخطاف وثبَّته في مكان بحيث يكون الحبل مواجهًا للنافذة الصغيرة التي في حجرة القراصنة ... ثم طلب من «بو عمير» أن ينزلق على الحبل حتى يصل إلى النافذة ثم يسلِّط قاذف اللهب منها.

انزلق «بو عمير» على الحبل حتى أصبح مواجهًا لنافذة القراصنة، سلَّط «بو عمير» اللهبَ على النافذة ثم ضغط، فاندفع اللهب داخل القاعة ... فعلَا الصياحُ والصراخ، حينئذٍ تدافع القراصنة إلى الباب ففتحوه فأصبحوا صيدًا ثمينًا للشياطين ... وواصل «بو عمير» انزلاقَه إلى أسفل ... وما كادَت قدماه تُلامسان الأرض حتى رأى رجلًا يُشبه الظلام يخرج من القلعة ويجري ناحية الشاطئ ... حاول «بو عمير» أن يصيدَه بمسدسه لكنه لم يُفلح ... لقد توارى الرجل عن عينه وسط الصخور، وبعد لحظات سَمِع «بو عمير» صوتَ هديرِ محرِّك ... ثم لنشًا يبتعد ...

كان «أحمد» يلاحق «بو عمير»، فأدرك على الفور أن «أوكارا» هو الذي هرب في اللنش ... رجع «أحمد» يجري بأقصى ما في وسعه حتى وصل إلى اللنش، وأدار محرِّكَه في سرعة، وانطلق خلف «أوكارا»، وبدأت المطاردة في أول أضواء النهار. كانت المسافة بعيدةً بين أحمد وزعيم القراصنة «أوكارا»، وضغط «أحمد» على السرعة فراحَ اللنش يقفز فوق سطح الماء ولا يكاد يلامس ماء المحيط، وبدأت المسافة تضيق وتضيق حتى أحسَّ «أوكارا» أنه في خطر ... فأخذ يصوِّب بندقيتَه إلى «أحمد»، وكان «أحمد» يتفادى طلقاتِه بأن يسير في خطٍّ متعرج، ثم أمسك «أحمد» بمسدسه وصوَّب في جسم اللنش فانفجر اللنش بـ «أوكارا»، فاندفع إلى الماء ... ولم تمضِ ثوانٍ حتى كان «أحمد» فوق رأسه ...

حاول «أوكارا» أن يصعد اللنش لينجوَ من الغرق ... فأخذ «أحمد» بيده ووضع فيها طرفَ الحبل، ثم قال له: إنك غير نظيف ... ولا يمكن أن أحملك فوق هذا اللنش ...

ثم تركه في الماء وانطلق إلى الشاطئ واللنش يجرُّ «أوكارا» في الماء وهو يصرخ، وحين وصل إلى الشاطئ جرَّه بالحبل إلى القلعة ... وكان الشياطين قد قبضوا على ثلاثة من القراصنة وأوثقوهم بالحبل الذي كانوا يتسلقون عليه إلى القلعة ...

صَعِد الشياطين بما تبقَّى من القراصنة أعلى القلعة ... وهم موثقون يجرُّونهم خلفهم ثم صفَّوهم وأوثقوهم إلى بعض الكتل الخشبية ... ثم التفت «أحمد» إليهم، وقال: أين «رشيد»؟

لقد كان الشياطين إلى هذه اللحظة لم يعثروا على «رشيد» الذي كان يستقر في زنزانة أسفل القلعة.

أخرج «أحمد» خنجرًا ثم اتجه إلى «أوكارا»، وأمسكه من شعره الخشن، وجذبه جذبة عنيفة، وقال: أين «رشيد» وإلا أجهزتُ عليك.

نظر إليه «أوكارا»، ثم قال: فكَّ وثاقي وسوف أدلك على مكانه ...

ضحك «أحمد» ساخرًا منه: أفكُّ وثاقك ... إن الكونَ كلَّه الآن سعيد لأنك موثَّق، ولو سألت هذه الكتلة الخشبية: هل أفك وثاقك؟ لقالت: لا وألف لا، إن كل شيء يلعنك ... كل شيء يتبرَّأ منك لأنك شرٌّ، لقد كان بإمكاني أن أتركك في الماء ليأكلك السمك ... لكن ضميري يأبى عليَّ أن أُطعمَ السمك لحمًا فاسدًا، والآن: أين «رشيد»؟ انطق قبل أن ألوِّثَ هذا الخنجرَ بدمك.

لم ينطق «أوكارا» بل ظل صامتًا. نظر «أحمد» إلى الشياطين، وقال لهم: أمامكم ثلاثة من رجاله إن لم ينطقوا في خلال خمس دقائق ألقوا بأحد رجاله من أعلى القلعة ... وهكذا كل خمس دقائق حتى يكون هو الأخير ...

كان «أحمد» يروح ويجيء حتى مرَّت خمس دقائق ... فكَّ الشياطين وثاقَ الرجل ثم ساقوه إلى حافة القلعة، ففزع الرجل، وصاح: لا ... لا ... لا تقتلوني ... سأُخبركم أين يكون ...

سار «أحمد» حتى وقف خلف الرجل، ثم قال له: أين «رشيد»؟

ردَّ الرجل في خوف وفزع: إنه في زنزانة أسفل القلعة.

صرخ «أوكارا»: سأقتلك أيها الجبان لن أتركَك. أرجعَ «بو عمير» الرجلَ للخلف ثم أوثقه إلى جوار زملائه ... وجرَى «خالد» و«قيس» أسفل القلعة ... حتى وصلوا إلى نهاية السلَّم ثم دارَا في المكان حتى رأَوا بابًا أسفل السلَّم ... دفع «خالد» و«قيس» البابَ فلم ينفتح، لقد كان قويًّا ... تأخَّر «خالد» وبحث عن شيء فلم يجد، فحمل صخرةً كبيرة فدفعها بقوة حتى كسرَت جزءًا في الباب، ثم نادى «قيس»: «رشيد» ... «رشيد».

أقبل «رشيد» موثق اليدين فانحنى حتى خرج من الفتحة، فأخرج «قيس» مطواةً وقطع بها الوثاق من يده، وصعدوا إلى حيث يوجد بقية الشياطين ... حين وصل «رشيد» إلى مكان الشياطين وجد «أوكارا» مربوطًا مع ثلاثة من القراصنة.

ذهب «رشيد» ناحية «أوكارا»، وقال: لقد كنت تريد أن تتغدَّى بي ويتعشَّى رجالُك بزملائي، ما رأيك في هذا الإفطار الجماعي. لقد أفطرنا بكم ...

أمر «أحمد» الشياطين أن يغادروا القلعة فورًا ... ثم نظر إلى «أوكارا» ورجاله، وقال: وداعًا يا «أوكارا» إلى الأبد ... لن أقتلَكم طبعًا ... لو قتلتُكم لأرحتُكم ... لكني سأترككم لتذوقوا العذاب ... كهؤلاء الذين خطفتموهم وكتبتم عليهم الرقَّ والعذاب، سأترككم لتموتوا ببطء ... وداعًا يا «أوكارا» إلى الأبد ...

ثم هبط الدرجَ مسرعًا وخرج من القلعة فوجد الشياطين يقفون أمامها، واقترب «خالد» من «أحمد»، وقال: هل نُفجِّرها؟

نظر «أحمد» إليه، وقال: لا ... إنها الطعم الذي سيجلب لنا الفريسة ... تعالَ نضع «أوكارا» ورجاله كأنهم ينتظرون السفينة ... فلو رآهم بقيةُ القراصنة في السفينة لظنوا أن «أوكارا» ينتظرهم وهنا سيتقدَّمون بكل ثقة وهم آمنون. الذي ستفعله هو أن تذهبَ لتأتيَ باللنش الآخر الذي كانوا يستخدمونه وتُقابلنا في المكان الذي تركنا فيه لنشنا.

قفز «خالد» في خطوات رشيقة منحدرًا من أعلى الصخور إلى حيث يستقر اللنش الثاني الخاص بالقراصنة ... وأدار محرِّكَه ثم انطلق به إلى الجهة الأخرى حيث يستقر اللنش «الظافر».

عاد الشياطين الخمسة إلى مكان اللنش، ومرَّت دقائق قليلة ثم أقبل «خالد» في اللنش طائرًا فوق صفحة الماء ... وجلس الستة فوق الصخور ... قال «باسم»: لقد تعبنا اليوم ...

ردَّ «أحمد»: نعم ... لقد تعبنا ... ولم يبقَ إلا الغنيمة ... إن الأمور تسير كأحسن ما يكون ...

ثم نظر إليه «خالد» وقال: نريد أن نأكل ... أليس معك طعام؟

ردَّ «خالد»: حالًا.

وجلس الشياطين على هيئة دائرة، وقد اقتربوا من بعضهم ... وجاء «خالد» ببعض المعلبات والخبز وزجاجة مياه معدنية ثم انهمكوا في الطعام يأكلون ... دون أن يتكلموا كلمة واحدة ...

بعد قليل فرغ «أحمد» من طعامه، ثم قام ... والتفتَ إلى بقية الشياطين، وقال: أعتقد أنه أصبح واجبًا أن يعلم رقم «صفر» بمصير «أوكارا».

وقفز إلى اللنش وأخرج الجهاز الكبير الذي بحقيبته، ثم أخذ يُرسل الرسالة عن طريق الإشارات الرمزية ... كان مضمون الرسالة: «من «ش. ك. س» إلى الزعيم رقم «صفر»، لقد وصلنا واصطدنا «أوكارا» زعيم قراصنة المحيط، وتركناه موثوقَ اليدين في قلعته تشويه الشمس ... ونحن في انتظار الحوت ...»

وبعد لحظات كان الجهاز يستقبل الردَّ: «من رقم «صفر» إلى «ش. ك. س»، الحوت قادم إلى حيث «أوكارا»، يجب أن تصطادَه قبل الظلام.»

نقل «أحمد» الرسالة إلى الشياطين، ثم قال: ما رأيكم؟ الحوت قادم قبل حلول الظلام ...

قال «بو عمير»: علينا أن ننتظر؛ فليس من المعقول أن نرجع إلى الجزيرة حيث الحاج «جوهر» ثم نعود.

ردَّ «خالد»: طبعًا ليس من المعقول ... لا بد أن ننتظر.

قال «أحمد»: إذن ... لقد واتَتني فكرة ... هيا ننفذها ...

فتح «أحمد» إحدى الحقائب، وأخرج منها حقيبة صغيرة من نسيج البوليستر، ثم فتح السوستة، فتحوَّلَت إلى غطاء كبير ... خرج بها إلى الشاطئ، وعلَّقها على الصخور من أطرافها فتحولت إلى مظلة ... فدخل الشياطين في ظلِّها ... ثم قال «أحمد»: سنقوم بعمل خدمة للحراسة حتى ينامَ البعض والبعض الآخر يحميهم ... كل اثنين يقومان بالحراسة لمدة ساعة ونصف ... على أن يحرسَ واحدٌ ناحية المحيط والآخر جهة القلعة ... وسأكون أنا و«خالد» في أول نوبة حراسة ... نريد أن نأخذ قسطًا من الراحة حتى نستطيع مواجهة الحوت، لقد آن الأوان أن تنتهيَ أسطورةُ «أوكارا» وينعم العبيد بالحرية.

في انتظار الحوت!

كانت الساعة تقترب من الثالثة حين كان «أحمد» ينظر في المنظار المكبر ... لقد مرَّ الوقت بطيئًا، وها هي الشمس تقترب شيئًا فشيئًا من المغيب ... لقد أكد الزعيم رقم «صفر» أن السفينة قادمة، وستمر بالجزيرة قبل حلول الظلام ... صَعِد «أحمد» فوق إحدى الكتل الصخرية، ثم وضع المنظار مرة أخرى على عينَيه، وراح يجوب الأفقَ كلَّه، ثم أخذ يكلم نفسه: ما هذا؟ ووقف يدقق النظر ...

أهي أشباح تظهر وتختفي فوق سطح الماء؟ أتكون هذه هي السفينة؟ إنها غير واضحة، الضباب يلفُّها، لم يستطع «أحمد» أن يتبيَّنَ جيدًا ما هذا الذي يلوح ويختفي لأنه بعيد ...

عاد مرة أخرى، واستلقى بجوار الشياطين ... وصمت قليلًا، ثم قال: ربما تتأخر السفينة حتى حلول الظلام. انتبه «بو عمير»، وهبَّ جالسًا: كيف هذا؟

قال «أحمد»: أنا أقول ربما ... لأن الساعة الآن الثالثة ومع ذلك لم نلمح أيَّ أثر للسفينة فوق ماء المحيط.

التفت «باسم»، وقال: ما زالت هناك خمس ساعات حتى يحلَّ الظلام ...

نظر «أحمد» إلى المحيط، وقال وهو ينظر بعيدًا: كنا نتمنَّى أن تأتيَ الآن ... ليكن ... ليكن ما يكون.

مرَّت فترةُ صمتٍ ثم قال «رشيد»: لكن ماذا سنفعل في هؤلاء الأشرار في القلعة؟

ردَّ «أحمد»: هؤلاء كم نهبوا وكم خربوا ... وكم خطفوا آلافًا من الأطفال والنساء وباعوهم في سوق الرقيق ... ولم تقتصَّ منهم العدالة!

إنهم معنا الآن ورقةُ ضغط ... إن مَن يراهم سيظنُّ أن «أوكارا» يتلهف شوقًا إلى وصول السفينة، ولن يصدق القادمون أن «أوكارا» أسطورة المحيط قد سقط بهذه السهولة ...

قال «باسم»: لكن ألَا ترى أننا لم نجد لديهم سفنًا ولا قواربَ كبيرة ... كلُّ ما لديهم كان عبارةً عن أربعة أو خمسة لنشات مطاطية ...

قال «أحمد»: نعم ... حتى يتحركوا في سرعة ويهاجموا في خفة ... فلا تستطيع السفن ولا القوارب ملاحقتَهم ...

وهنا تدخَّل «خالد» في الحديث وكأنه يتذكَّر شيئًا، فقال: فعلًا ... ولقد قرأت منذ فترة عن عصابة من القراصنة هاجمَت باخرة في أحد المضايق ... وقتلوا ما يقرب من ثلاثين بحارًا من بحارتها، ونهبوا ما كان معهم من مالٍ وكل ما خفَّ حمْلُه وغلَا ثمنُه، وكل ذلك في قوارب صغيرة!

ردَّ «أحمد»: لقد قرأتُ شيئًا كهذا فعلًا ... وإنه لشيء مؤسف حقًّا ... إن هؤلاء يجب أن يعاقبوا ... لكن من المؤسف حقًّا أن بعض الحكومات تهابهم وتتركهم يعيثون في الأرض فسادًا.

كانت الساعة تقترب من الرابعة حين وقف «أحمد»، وأمسك بالمنظار المكبر، وجعل ينظر في الأفق ... وسرعان ما قال: الآن بدَا كلُّ شيء واضحًا ... الحوت قادم ... انظروا ...

وقف الشياطين وتناوبوا النظر من خلال المنظار المكبر، ثم قال «باسم»: الآن فقط تبدأ المغامرة الحقيقية اليوم سيرون مَن المنتصر: الشياطين أم القراصنة؟

طلب «أحمد» من الشياطين أن يجلسوا حتى يعدُّوا الخطة لشلِّ حركة السفينة. ثم قال «أحمد»: طبعًا مفهوم لديكم أننا نريد السفينة سليمة لأجل الأرواح التي عليها، وبناءً على ذلك تعاملُنا سيكون مع القراصنة، أمامنا طريقتان للتعامل معهم؛ الأولى أن نهاجمَ السفينة ونتعامل معهم ... وهذه مخاطرة كبيرة ... والثانية هي أن ننتظر حتى يأتيَ بعضُ القراصنة إلى القلعة لإعطاء التمام لزعيمهم «أوكارا» ... في هذه اللحظة سنكون مقسمين إلى فريقين: فريق سيستقبل اللنشَ الخاصَّ بالقراصنة ويذهب إلى حيث كان اللنش، والفريق الثاني سيبقى هنا لنصنع كماشةً حول القراصنة حين ينزلون إلى البر، وبعد ذلك سيكون من السهل الوصول إلى السفينة حيث ستكون خالية إلا من عدد قليل من الحراس.

والآن «خالد» و«باسم» و«قيس» سيستقلُّون اللنش الخاص بالقراصنة، ويتوجهون إلى نقطة المواجهة، وسأبقى أنا، و«بو عمير»، و«رشيد» في نقطة المواجهة «٢». وبدأ الشياطين يتحركون لاتخاذ أوضاع الهجوم.

كانت السفينة تتحرك وتشقُّ الماء قادمةً إلى الجزيرة ... وكان أحدُ القراصنة قد اعتلى السارية الأمامية، وراح ينظر في منظاره المكبَّر، ثم أخذ يصيح: هنا ... هذا هو «أوكارا» العظيم ينتظرنا فوق القلعة ... ها ها ها. لقد نجحنا ولقد وصلنا ... نحن ملوك المحيط ...

كانت النساء تبكي ويزيدْنَ في البكاء كلما اقتربت السفينة من الجزيرة ... وكان كثير من الأطفال يبدون في حالة كئيبة رثة لا يفهمون شيئًا مما حدث.

لقد كان على ظهر السفينة عشرة من القراصنة ذوي الوجوه القبيحة والشعور الطويلة الرثَّة القذرة ... لقد كانوا يُشبهون الحيواناتِ المفترسة ... كانوا في حالة هستيرية حين رأوا الجزيرة، وراحوا يغنون ويرقصون على ظهر السفينة.

اقتربت الساعة من الخامسة والنصف وأصبحت السفينة قريبة من شواطئ الجزيرة، ثم أخذَت طريقها باتجاه الشمال مقتربةً من اللسان الصخري ... ثم أخذَت تُهدِّئ من سرعتها حتى توقَّفَت، ألقَت المرساة في الماء ... مضَت لحظات ثم ظهر بجوارها لنشٌ مطاطيٌّ به أربعة من القراصنة، بدأ يتحرك تجاه الشاطئ مقتربًا في اتجاه القلعة ... كان «خالد» وصديقه يتربصان قريبًا من الشاطئ حتى إذا اقترب اللنش وأصبح أمامهم.

سارع «خالد» بالوقوف ثم أمرهم بالتوقف والاستسلام ... لكن القراصنة لم يستجيبوا وكأنهم لا يصدقون ما يحدث، ثم أمعنوا النظر، فوجدوا أن الأمر فعلًا حقيقيٌّ، في تلك اللحظة دوَّت طلقاتُ الرصاص واستداروا للخلف ...

لكن «خالد» قد انطلق وراءهم تجاه السفينة. وكان «أحمد» قد أقبل من الناحية الأخرى مندفعًا تجاه لنش القراصنة، وأصبح اللنش بينهما كالفأر بين مخالب القط ... وراح يدور هنا وهناك والقراصنة يُطلقون الرصاص في كل اتجاه ...

أوقف «أحمد» اللنش في الوقت المناسب، وراح يصوِّب طلقات المدفع الرشاش تجاه القراصنة، فأسقط منهم ثلاثة في الماء ... وكان «خالد» يدور حولهم في مناورة وحصار حتى لا يُفلتوا من قبضتهم ...

ورفع «خالد» البندقية وصوَّبها تجاه قرصان من القراصنة، فطار في الهواء ثم سقط في الماء ... ولقد كانوا يتساقطون كالبط.

بقيَ اللنش فيه واحد من القراصنة، وبدَا كالذي أصابه حالةٌ من الهستيريا، فاندفع باللنش تجاه «أحمد» ورفيقه في عملية انتحارية يريد أن يصطدم بهم ليفجرَ اللنش بهم ... لكن الشياطين كانوا قد فهموا الإشارة فتركه «أحمد» حتى اقترب منهم، ثم ضغط على زراع المحرك بقوة، فاندفع اللنش للأمام كالسهم، وانطلق اللنش الآخر في الناحية الأخرى،

لكن «أحمد» صوَّب إليه عدةَ طلقات من الخلف، فانفجر جانبٌ من اللنش وأصابَت الطلقةُ خزانَ الوقود، فانفجر وتطايرَت قطعٌ من اللنش، وتحوَّل سطح المحيط إلى جحيم، وتحرَّك الشياطين تجاه السفينة التي كانت قد بدأت تستدير لتهرب ... فقد رأى القراصنة الباقون ما حل بزملائهم فعزموا على الهروب ... وأحاط الشياطين بالسفينة ... لكن القراصنة استقبلوهم بدفعات من طلقات الرصاص ... لم يستطع الشياطين أن يردوا عليهم ... لأن القراصنة كانوا يستخدمون من الأطفال دروعًا بشرية يحتمون بها ... وكان على الشياطين أن يتحركوا سريعًا لمواجهة هذا الموقف الصعب ...

كانت الشمس قد بدأَت تختفي وراء السحب المتكاثرة ... وقفزَت فكرةٌ إلى ذهن «رشيد» ... فطلب من «أحمد» أن يُطلق عدة أعيرة نارية تُشغل القراصنة حتى يقفز إلى الماء ثم يغطس حتى يصل إلى السلم الجانبي للسفينة ويحاول أن يتسلَّقَه.

وفعلًا قام «أحمد» بإطلاق عدة أعيرة نارية فوق سطح السفينة ليُشغل بها القراصنة ... ثم قفز «رشيد» بهدوء إلى الماء، واختفى وظل غاطسًا تحت الماء، بينما راح «أحمد» يُطلق النيران مبتعدًا وهو يتجه إلى مقدمة السفينة ...

وصل «رشيد» إلى السفينة وحاول أن يصل إلى السلَّم، لكنه كان مرتفعًا بعيدًا عن متناول يده، فوجد قطعة من الحبال تتدلَّى قريبًا من السلم، فأمسك بها ثم بدأ يتعلق بها حتى اقترب من السلم وأمسك به في خفة، ثم راح يتسلل عليه صاعدًا لأعلى السفينة ... حتى وصل إلى السطح ... وفي هذه اللحظة اندفع إليه أحد القراصنة وفي يده قطعة كبيرة من الحديد ليضربه بها، فسقط «رشيد» على الأرض، فهوى الرجل على جانب السفينة، فحمله «رشيد» وألقى به في الماء ... ثم جرى للأمام ليُشغل القراصنة ويحول المعركة إلى ظهر السفينة حتى يجد الشياطين فرصةً للصعود إلى ظهر السفينة ...

وتحرَّكَت كتلةُ البشر على ظهر السفينة، وأحسَّ القراصنة أن شيئًا ما يحدث على ظهر السفينة فهرع بعضهم متجهًا للخلف، فرأى «رشيد» يتخلل كتلة البشر ... وانشغل القراصنة به مما أعطى الفرصة لـ «أحمد» ورفاقه أن يقتربوا من السفينة، وأمسك «بو عمير» بالسلَّم وصَعِد باقي الشياطين، وابتدأَت معركةٌ فاصلة لتضعَ النهاية لهذه المأساة.

كان القراصنة يختبئون خلف ظهور الأطفال ويحتمون بهم، مما جعل مهمة الشياطين صعبة، خصوصًا حين بدأ كثيرٌ من الأطفال والنساء في الصراخ ... كان على الشياطين أن يدفعوا القراصنة لمقدمة السفينة حتى يتمكنوا منهم ... وبدأ الشياطين يضيقون الخناق على القراصنة، فاندفعوا لمقدمة السفينة ... وصَعِد أحد القراصنة إلى

إحدى السواري وتعلَّق بأحد الأحبال الذي رُبط من طرفه في قطعة خشبية كبيرة فتعلَّق به القرصان ليجعل منه أرجوحة يهجم بها على الشياطين من أعلى ...

لكن «خالد» كان قد تسلل من ورائه وصَعِد السارية القريبة منه، وحين اندفع الرجل بالحبل، أخرج «خالد» خنجرَه وقطع به الحبل في لمح البصر، فاندفع الرجل بالحبل وقطعة الخشب إلى البحر، ثم قفز «خالد» بقوة فوق غرفة القيادة، ثم هوى بقدمَيه فوق أحد القراصنة، فاندفع بقوة وارتطم بالسفينة ... فرفعه «خالد» وحمله بقوة ثم ألقى به إلى البحر ...

واندفع الشياطين هنا وهناك يتتبعون ما بقيَ من القراصنة ... فجرى أحد القراصنة وقفز إلى إحدى اللنشات وأدار محرِّكَه ليفلت به ويهرب، وفعلًا تحرَّك به بعيدًا عن السفينة ... لكن «أحمد» كان قد صوب إليه طلقة صائبة فأسقطَته في الماء وبقيَ اللنش مندفعًا، وحين كان الشياطين يتابعون اللنش وهو مندفع في الماء لمحوا على البُعد عشرات القوارب واللنشات ...

لقد نقل الحاج «أحمد جوهر» الخبرَ إلى حاكم الجزيرة الذي أرسل قواته على الفور، وأقبل عشرات الصيادين في قواربهم يتجهون نحو السفينة ... وتحرَّكت القوارب في موكب عظيم حتى أحاطَت بالسفينة، ثم اقترب أحدُ القوارب وأمسك أحد الرجال بالسلم، ثم صَعِد أحد الرجال. لقد كان الحاج «أحمد جوهر» الذي كان أولَ شخص يصعد السفينة، ثم توالى بعد ذلك صعودُ قوارب حرس الحدود ثم بعض الصيادين، واطمأنَّ الحاج «أحمد جوهر» على الشياطين وعلى الأسرى، وجاء قائد الحرس يسأل الشياطين عن باقي أفراد العصابة، فأشاروا إلى القلعة وأخبروه أن زعيم العصابة «أوكارا» وثلاثة من رجاله محبوسون في قلعتهم ينتظرون الموت بعد نصف ساعة.

فسأله القائد: ولماذا بعد نصف ساعة؟

ردَّ «أحمد»: لأننا وضعنا قنابل موقوتة تحت جدران القلعة حتى لا تكونَ دافعًا لأحد أن يستغلَّها بعد ذلك ...

أمر القائد جنوده أن يستعدوا للإقلاع إلى الجزيرة ... ثم دوَّت في الأفق دقاتُ الطبول تُعلن فرحةَ الجميع ... واتجهت السفينة إلى الجزيرة ... وبعد دقائق ... تحولت القلعة إلى ذرات متناثرة في الفضاء ... وتحول ليل الجزيرة إلى نهار ... وأدار الجميع رءوسهم إلى الجزيرة ليشهدوا مصرعَ «أوكارا» ونهاية الشر في المحيط، وسقوط عصابة القراصنة ... بينما كانت السفينة ترقص على صفحة الماء عائدة إلى ميناء «موروني»، ويُسدل الستار إلى الأبد على أسطورة «أوكارا».

هنـــداوي